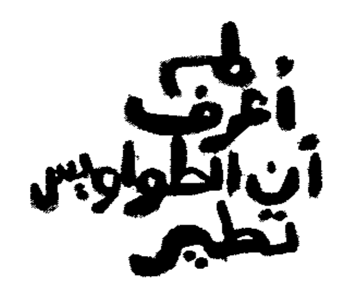

بهاء طاهر
الطبعة الرابعة
لم أعرف أن الطواويس تطير
مجموعة قصصية
** معرفتي **
www.ibtesama.com
منتديات مجلة الإبتسامة


لم أعرف أن الطواويس تطير

الرسوم والتصميم الداخلي والغلاف وليد طاهر

الطبعة الأولى يوليـــو ٢٠٠٩
الطبعة الثانيـة سبتمـبر ٢٠٠٩
الطبعة الثالثـة ينايـــر ٢٠١٠
الطبعة الرابعة يونيـــو ٢٠١٠

رقم الإيداع ٢٠٠٩/١٣٥٤٠
ISBN 978-977-09-2648-8

٨ شارع سيبويه المصري
مدينة نصر ـ القاهرة ـ مصر
تليفون: ٢٤٠٢٣٣٩٩
فاكس: ٢٤٠٣٧٥٦٧(٢٠٢) +
email: dar@shorouk. com
www. shorouk. com





مجموعة قصصية

دار الشروق

المحتويات




انت اسمك إيه؟



حفيدي أحمد، البالغ من العمر سنتين، يعشق الأدب الروسي. لا يهمه الأدب العربي أو الإنجليزي أو المكتوب بأي لغة أخرى، ولكنه منذ أن تعلم تسلق المقعد المجاور لمكتبتي والوصول إلى أرففها، ركز كل اهتمامه على الروايات الروسية. يختار رواية منها ثم ينهمك بسعادة بالغة في تمزيق غلافها إلى قصاصات صغيرة، وحيرت هذه المسألة أمه كما حيرتني، فأغلفة هذه الروايات لا تلفت ألوانها النظر، ليست حمراء ولا صفراء، بل هي مجرد ورق أبيض مصقول عليه اسم الرواية والمؤلف ويحيط الغلاف بالكتاب السميك. ولكن أحمد لسبب لا نعرفه أحب هذه الأغلفة دون غيرها، وعندما يختفي عن الأنظار دقيقة واحدة كنا نجده جالسا على الأرض وبين رجليه الكتاب الضحية وبقايا الغلاف الممزق. أحيانًا كنا نجد قصاصات بيضاء صغيرة ملتصقة بشفتيه، وفي هذه الحالة كانت أمه تفتح فمه بضغط

وجنتيه بين السبابة والإبهام، ثم تغوص بأصبعها في فمه دون أن تبالي بصراخه لتتأكد من أنه لم يبتلع دستوفسكي أو تولستوى.

بعد ذلك وبسبب ضغط الظروف، نقل أحمد اهتمامه من النثر إلى الشعر. فقد نفينا عمالقة الأدب الروسي بأرديتهم البيضاء الممزقة والمهلهلة إلى رف علوي لا تصل إليه يده، وبقيت في الأرفف السفلية الكتب صغيرة الحجم، ومعظمها من الشعر الحديث، وما بعد الحديث. وكان لأحمد موقف محدد منها بسبب صغر حجمها ورقة أوراقها، فهو لم يكن يكتفي بتمزيق أغلفتها، بل كان «يفرتك» الأغلفة والصفحات بسرعة ونشاط، فتتحول قصائد النثر وقصائد النظم في ثوان إلى فتات منفوش قبل وصول النجدة.

ولم تكن اهتمامات أحمد مقصورة على الأدب، فرغم أننا كنا نجتمع على مراقبته لكي لا يغيب عن أنظارنا، أمه وأبوه وجدته وأخوه الأكبر وأنا بالطبع، فقد كان ينجح في اختراق هذا الحصار الخانق لدقائق أو لثوان تكفي لكي يواصل اكتشاف العالم. وشملت أعماله الأخيرة ما يلي:

ـ شرب نصف زجاجة كولونيا - وعندما عثرت عليه متلبسا سكب نصف الزجاجة الباقي على الأرض وهو يواجهني بابتسامة عذبة قائلا: «ميه»! وعند الاتصال بالطبيب نصح بأن نسقيه كوبا من اللبن وأن نراقبه لمدة ساعة، وأسفرت المراقبة خلال الساعة عن أنه كان يمشي متباعد الساقين وأن رأسه كان يتحرك آليا فوق رقبته مثل اليويو وأنه كان يضحك دون سبب.

ـ في تجربة ثانية خرج من الحمام محمر الوجه وهو يسعل بشدة وعيناه تدمعان وتخرج من فمه الرغاوي، واتضح أنه سف كمية غير

معروفة من مسحوق الغسيل .. حملته جدته وهي تبكي إلى أقرب مستشفى حيث جرب أيضًا لأول مرة غسيل المعدة. ولم تمنعه الدموع ولا السعال ولا شيء آخر من أن يلفت نظر جدته المذعورة مشيرا بسبابته إلى وجود «عبية (عربية) حمرا» في الشارع.

ـ أشياء صغيرة لا تكاد تستحق الذكر إلى جانب ما سبق، مثل تحطيم جهاز الراديو الترانستور، وفتح بطن جهاز التسجيل، وإلقاء لعب وشرائط تسجيل ومفاتيح وأشياء أخرى من البلكونة، وتكسير بعض الأكواب والفناجين والأطباق .. وعندما كنت أضبطه في هذه الحالات كان يسألني بجدية «كخ»؟ فأرد موافقًا «كخ» فيلقي ما في يده على الأرض أو في الشارع.

وكنت أشعر بنوع من الغيرة من أبيه لأنه في الغالب كان يتراجع عندما يقول له أبوه «كخ»، أما أنا جده المجرب الأشيب الشعر الذي ربيت أمه، فلم يكن لـ«كخي» الخاصة أدنى تأثير عليه.

لكنني مستفيدا من التجارب السابقة قمت قبل آخر زياراته لي بإخفاء كل الأشياء التي تمثل إغراء أو خطرًا: الأدوية، الأجهزة الكهربائية، ماكينة الحلاقة، وكل أدواتها، معجون الأسنان، ريموت التليفزيون، الأقلام، المزهريات، مشابك الغسيل... إلخ. وتأكدت من إغلاق أدراج المكتب بالمفتاح بعد وضع كل الأوراق المهمة داخلها. وأجريت عدة جولات تفتيشية في الشقة للتأكد من أنني لم أنس شيئًا.

وكنت جاهزًا لتنفيذ جميع طلباته عندما وصل، فبعد العناق والقبلات والمرجحة وحمله فوق كتفي وجريي به في أرجاء الشقة،

وهو يضحك ضحكات عالية تفرح القلب، وبعد أن جلست في الصالة على الكنبة مهدودًا وأنا ألهث وأشعر بشيء من الدوار قال أحمد:

ـ عبية .. عبية.

جريت إلى الداخل وأحضرت له السيارة اللعبة التي يحبها وأنا أقول بفخر:

ـ عبية حمرا!

أمسك أحمد اللعبة المعدنية وتفحصها للحظة ثم رماها في الأرض، وكرر وهو يشير نحو الباب: «عبية.. عبية».

التقطت اللعبة من الأرض وكررت أنا أيضا في حماس: عبية حمرا! بدأ يبكي بصوت عال: عا.. عا.. عا..

حاولت أن أرفعه مرة أخرى فوق كتفي فتملص مني وهو يواصل البكاء.

قالت أمه وهي تضحك: إحنا مش عبط يا بابا: هو عايزك تفسحه في عربية بحق وحقيقي.

قلت وأنا أحاول احتضانه: أحمد حلو .. أحمد جميل.. عبية بعدين، الأول مم.. وبعدين عبية.

ـ عا.. عا.. عا..

قالت أمه بلهجة تربوية حكيمة: ما ينفعش كده يابابا.. لازم تشغله بحاجة تانية.

ثم التقطته من الأرض وحملته متوجهة به نحو النافذة مغلقة الزجاج وهي تقول:

ـ تعال يا أحمد نتفرج على القطة.

ـ عا.. عا.. عا..

شايف يا أحمد القطة اللي فوق السطح؟ الله: قطة جميلة ناو.. ناو..

ـ عا.. عا.. عا..

ـ الله! الله! ايه دي يا أحمد؟ حمامة؟ الله: بغ بغو.. بغ بغو..

ـ عا.. عا..

ـ وايه اللي في الشارع دي؟ عر .. (ثم توقفت) ع.ع.عجلة؟ دي عجلة؟

وكنت أقف وراء أمه أكرر بحماس النونوة والبغوغة والدهشة، وحاولت أن أمد يدي لأربت على خده، فنطر يدي وهو يقوس ظهره للخلف في تشنج ويصرخ:

ـ عبية عبية.. عا.. عا.. عا..

استدارت أمه من النافذة وأنزلته من على كتفها وتركته على الأرض.

ـ اتفلق!

ارتفع بكاؤه لكنها لم تسأل فيه وذهبت إلى المطبخ لتلحق بأمها.

كنت أتابع خطواته المتخبطة وأشعر بقلة الحيلة أمام هذا البكاء الذي يرجه رجا ويمزق قلبي وأنا أكرر في يأس

ـ أحمد حلو.. أحمد جميل!

لكن أحمد توقف فجأة ونهنه نهنهة متقطعة طويلة أعقبتها شهقة ثم التفت نحوي وسألني والبكاء مازال في صوته، السؤال الوحيد الذي يعرفه والذي ظل يوجهه للجميع طوال الشهر:

ـ إنت اسمك إيه؟

فاجأتني النقلة السريعة في الظروف الصعبة التي نمر بها، لكني قلت بثبات:

ـ أنا اسمي جلال.

ـ لأ.. انت اسمك إيه؟

ـ اسمي جدو.

ـ لأ.. انت اسمك إيه؟

ـ أنا اسمي جاجا (هكذا يناديني أخوه الأكبر)

ـ لأ.. انت اسمك إيه؟

ـ اسمي ولا حاجة.

ـ حاجة؟

ـ آه حاجة.. أنا جدو حاجة.

ضحك ضحكة من مقطع واحد، ثم فجأة خطف سماعة التليفون من فوق المنضدة التي تفصل بيننا وسألني «كخ»؟

لم أسقط في الفخ، ظللت ساكتا وأنا أنظر نحوه باستعطاف وظل

هو أيضا ينظر في عيني بثبات، والدموع مازالت تبلل وجهه مكررًا السؤال:

ـ «كخ»؟

كانت علامات الغضب في وجهه وهو يهز السماعة، وعينه في عيني لأنه في الحقيقة يتساءل: ما هذا الجد الذي لا يعرف غير كلمة «كخ» وليست عنده عبية للفسحة فضلا عن أنه ليس له أي اسم مقنع؟

كان ينبغي بالطبع أن أظل عاقلا، ولكنني استسلمت أمام نظرته وقلت بهدوء:

ـ أيوه يا أحمد.. كخ!

تناثرت أحشاء السماعة في الأرض وهي تطلق رنين الوداع الأخير وصرخ أحمد في وجهي بتعليق نهائي:

ـ كاكا!


سُكّان القصر

(١)



يحتل القصر ناصيتي شارعين متوازيين في حي قاهري، كان يوصف قبل عشرات السنين بأنه حي راق. بقيت فيه بعض قصور وبيوت قديمة جميلة تكاد الآن تختفي وسط عمارات خرسانية صماء يسكنها وافدون جدد يقال إنهم من تجار «البودرة» وتجار السلاح وأشياء أخرى، ووسط شوارع مفتوحة الأحشاء وأرصفة تعلوها أكوام من القمامة والحجارة المتكسرة ويحتل ما بقي منها بائعات للخضار وللمناديل الورقية وشحاذات على حجورهن أطفال رضع، مستأجرون خصيصا لهذا الغرض، وتأكل أسراب من الذباب وجوههم الصغيرة الشاحبة. وفي المقابل لافتات المحلات الجديدة التي تحمل عناوين مضاءة بالنيون ومتعددة اللغات مثل «Take it easy» و«كوافير سيدهم ـ قسم خاص للمحجبات» و«دولشي فيتا» و«جزارة الهدى والنور»... إلخ.

الجزء الذي يقع فيه القصر بعيد عن الأنشطة التجارية. ما زال هادئا، شوارعه نظيفة وجيدة الرصف نسبيا. تطل الواجهة على شارع عمومي تقل فيه الحركة، ويتصدرها باب حديدي ضخم تربط مصراعيه جنازير حديدية سميكة ولم يره أحد مفتوحًا أبدًا. من خلف الباب تظهر حديقة نضرة من أشجار الكافور والجازورينا والأكاسيا، ولا يبين من خلالها سوى جزء صغير جدًّا من القصر الأبيض، عدا ذلك يحيط بالحديقة والمبنى سور حجري بالغ الارتفاع.

(٢)

تنقسم الحراسة للقصر إلى إجراءات صارت مألوفة وأخرى جديدة. فهناك مثلًا الكتل الخرسانية المربعة التي تحف بالأرصفة من جميع الجهات، والحواجز الحديدية التي تسد الشارعين المتوازيين وتقطع جزءًا من الشارع العمومي في مواجهة البوابة. وترفع هذه الحواجز فقط لمرور سكان البيوت المجاورة للقصر والمزودين برخص استثنائية مختومة، يراجعها الحراس كل مرة عند الدخول والخروج، يتفرسون طويلا في وجوه حاملي الرخص، ويضاهون أشكالهم بصورهم الفوتوغرافية المختومة.

عدد الحراس ما بين ١٥ - ٢٠ يقفون حول القصر على مدار الساعة. كلهم طوال القامات مفتولو العضلات.

أزياؤهم الموحدة بيضاء ناصعة، وتتدلى من خواصرهم مسدسات، رؤساؤهم أكبر سنًّا ويميلون قليلا إلى الامتلاء وتكور البطن.

إلى جانب ذلك توجد في أعلى السور كاميرات تليفزيونية تدور بشكل لولبي ويقال أيضًا إنها مزودة بميكروفونات حساسة جدًّا، يمكن أن تلتقط همس المارة في الطريق وما يدور في غرف نوم الجيران.

وعند كل من النواصي الأربع تقف عربة سوداء زجاجها داكن فلا يرى أحد ما بداخلها أو من بداخلها.

بعد الغروب تضيء حديقة القصر وأسواره كشافات نورها أصفر باهر، وتنتشر في الشارع العمومي كمائن متفرقة من الحراس تفحص المارة وتوقف السيارات التي لم يتعلم سائقوها بعد تجنب هذا الشارع. وعند منتصف الليل تقريبًا تطلق في الحديقة كلاب ضخمة من سلالة واحدة لونها أبيض ومرقطة ببقع سوداء. يقال إنها مدربة على أن تقتل أي متسلل بعضة واحدة في الرقبة ومدربة أيضًا على الاكتفاء بشل حركته وعلى أشياء أخرى كثيرة. تجوس هذه الكلاب في الحديقة دون صوت سوى لهاث متقطع ولكن نباحها الوحشي يخلع القلب إذا ما عبثت ريح قوية بفروع الأشجار أو إذا ما بكى رضيع في الليل.

(٣)

الشائعات حول هذا القصر لا نهاية لها. ولكل منها أنصار ومكذبون من أبناء الحي.

في البدء قبل سنوات قليلة، شاع على نطاق واسع الاعتقاد بأنه مقر لأحد أجهزة الأمن السرية. خصوم هذه الإشاعة لفتوا الانتباه إلى أن

الحراس ليسوا من الشرطة ولا من الجيش ولكنهم حرس خاص. ثم أين هم رجال جهاز الأمن هذا؟ ومتى يمارسون عملهم؟

هذه الإشاعة تتلاشى بالتدريج.

أصحاب الخيال الواسع أشاعوا أن القصر قصر لطائفة عَبدة الشيطان ولا تستند هذه الشائعة إلى أي دليل سوى أن المبنى الذي يخيم عليه الصمت باستمرار تنبعث منه في بعض الأحيان، في أحيان نادرة جدًّا أصوات فحيح أو صرير متصلة تشبه الموسيقى المعدنية الحديثة، التي يقال إنها من طقوس العبادة الشيطانية.

أعداء الإشاعة دحضوها أيضًا بدليل دامغ: لا يمكن للحكومة أن تسمح بوجود مقر علني لهذه الجماعة يعرقل حركة المواطنين مع ما هو معلوم من أن الحكومة لا تسمح أبدا بعبادة الشيطان.

شائعة ثالثة يتبناها مدعو العلم ببواطن الأمور، لا تقل غرابة عن سابقتها وإن يكن دليلها أقوى. مفادها أن القصر في الحقيقة خال تماما ولا يسكنه أحد. وتجد هذه الإشاعة صدى لأن أيًّا من السكان لم ير على الإطلاق أحدًا يدخل القصر أو يخرج منه في أي وقت من النهار أو الليل. يرد منكرو هذه الإشاعة بأن «جراج» القصر يقع تحت الأرض وأن مخرجه يمكن أن يكون في أي شارع قريب أو بعيد.

ضحكات: أنفاق سرية يعني؟

ـ لم لا؟ وإلا فلماذا كل هؤلاء الحراس والكاميرات والكلاب والحواجز.

ـ كل هذا خداع وتمويه.

ـ خداع لأي غرض؟ وتمويه على من؟

عند توجيه هذا السؤال يحدث تراجع فوري من مروجي الإشاعة ويقولون معك حق. معك حق. نحن المخطئون فعلًا.

لكنهم يتبادلون فيما بينهم نظرات تفاهم عميق.

أصحاب الفكر الظاهري، الذين لا يعترفون من حيث المبدأ بوجود بواطن خفية لأي شيء في الحياة، يقولون إن أصحاب القصر أو سكان القصر أو مستأجري القصر يأتون وينصرفون بطرق مجهولة وفي أوقات لا يعلمها أحد، وإنهم يزاولون عملًا مهمًّا أو لا يقومون بأي عمل ولكن حيثياتهم مهمة. قد يكونون مصريين وقد يكونون أجانب ولكن الحكومة تعلم بالتأكيد بأمرهم وتعلم أنه لا خطر منهم، فأين المشكلة؟

الظاهريون إذن، وهم الكثرة الغالبة في الحي أراحوا واستراحوا على عكس المتمردين والساخطين.

(٤)

ذات ليلة مثلًا، يجلس عجوزان من البقايا النادرة لمثقفي الزمن الماضي في أحد بارات الحي القليلة، المحكمة الإغلاق ذات الواجهات الشديدة التخفي .. أحدهما: المهندس عاشور، وكنيته بيكاسو، تعرض لإصابة مباشرة من القصر. يسكن في مواجهته عبر الشارع العمومي، ويجهل مثل الجميع أي شيء عنه.

شهد تطور الحكاية منذ البدء. ورث شقته القديمة الواسعة عن والده الذي كان مهندسًا كبيرًا يملك مكتبًا استشاريًا في وسط القاهرة. أراد عاشور منذ صباه أن يدخل كلية الفنون الجميلة لكن الوالد أصر على أن يدرس الهندسة ليخلفه في المهنة. قال إن الفن موهبة أكثر منه دراسة، ووعد مع ذلك بأن يكلف مدرسين خصوصيين بتعليمه الرسم في العطلات الجامعية. نفذ أبوه وعده لكن اهتمام عاشور بالفن بعد تخرجه في الجامعة فاق تركيزه على الهندسة. وبعد وفاة والده تنازل طواعية عن المكتب لأخيه الأصغر الذي لمع اسمه في عالم المقاولات.

قنع عاشور بالعمل مهندسًا في الحكومة وأقام معرضًا واحدًا، غير أن أعماله السوريالية لم تحقق أي نجاح فلم يكرر التجربة. كان مرتبه أيامها كبيرًا نسبيًّا فاستطاع أن يقتني لوحات لفنانين كبار مثل عز الدين حمودة ورمسيس يونان وناجي، بل اقتنى لوحة صغيرة لمحمود سعيد نفسه.

كان خبيرًا بالفعل فكون مجموعة قيمة من لوحات الفن المصري الحديث وقال مازحًا إن لم أشتهر كفنان فسأشتهر بعد ذلك بمجموعتي مثل محمد محمود خليل.

غير أن ذلك أيضًا لم يتحقق مع الأسف، فقد تغيرت الظروف ولم يعد المرتب يكفي فاضطر إلى بيع معظم مقتنياته ليدفع أجور الدروس الخصوصية لابنته التي درست الطب.

كان القصر ملهمًا له في بعض فترات حياته. جاوره عندما كان في الأصل سفارة لإحدى دول أمريكا اللاتينية، وشهد الحفلات التي كانت تقام في حديقته الكبيرة واستوحى منها بعض لوحاته.

وعندما انتقلت السفارة إلى حي آخر علقت على بابه لافتة «للبيع لعظيم» إلا أن العظماء تأخروا فتدهور حال الحديقة والقصر، وألهمته الحديقة الجرداء بأشجارها الذابلة وغصونها العارية من الخضرة بعضًا من أفضل اللوحات السوريالية التي يعتز بها، والتي تتشابك فيها خطوط عشوائية يغلب عليها اللونان الأصفر والرمادي على خلفية حمراء نارية، أعطاها عناوين تليق بها مثل «إيقاعات خربة» و«أهازيج الجنون»... إلخ.

ثم قيض لعاشور في شيخوخته أن يعايش التغير الذي انتاب القصر والحي فأضيفت إلى همومه وخيبات أمله في الحياة هموم جديدة.

مع أن بيته يقع خارج الشارعين المحظورين، ومع أن كل الحراس ورجال الكمائن يعرفون شكله جيدًا ويحفظون وجهه، فالأمر لا يسلم. يوقفونه بين الحين والآخر ويطلبون بطاقته بلطف وأدب. في العهد الجديد، الذي سبق ترميم القصر، لم يكن يحمل همًّا سوى للبوابين وسائقي التاكسي. اعتاد بعد أمسيات البار أن يمضغ لبانا وأشياء كثيرة تعطر رائحة الفم، وينفث بلا انقطاع دخان سجائر. والآن أصبح عليه أيضًا أن يراعي المشي في الشارع بخطوات مستقيمة، وأن يتجنب أية شبهة للترنح. أصبح يسير ناظرا بعناية إلى حركة قدميه. بالإضافة إلى ذلك أرغمته إشاعة الميكروفونات الحساسة والكاميرات المتلصصة على تجنب الخوض في كثير من الموضوعات وإتيان كثير من الحركات في بيته.

تباعدت مرات زيارته للبار وقل حديثه في البيت.

وجدت زوجته ذلك تغييرا إلى الأفضل اعتبرت مظاهر الاكتئاب التي بدت عليه نوعًا من النضج.

في تلك الليلة إذن كان يجلس في البار مع زميل دراسته وصديق عمره المهندس البهنسي. ومع أن البهنسي قد خرج مثله إلى المعاش قبل بضع سنين، إلا أنه ما زال يعمل مستشارا بعقد يتجدد كل سنة في إحدى الهيئات الحكومية الحساسة.

مع ندرة مرات الشراب أصبح المهندس عاشور يشعر بشيء في رأسه بعد أول كأس. غلب عليه ليلتها الحنين إلى الماضي واعتبره جميلا جدًّا بدأ يتحدث للبهنسي عن أمسيات الصيف أيام الشباب في الإسكندرية. عندما كانا يجلسان على رصيف المقهى المواجه للبحر يحتسيان البيرة ويشتريان الجندوفلي والجمبري من الباعة الذين يطوفون عليهم بسلال معلقة في مرافقهم بينما تمشي على الكورنيش فتيات ونساء رشيقات ـ لسن كالأفيال ـ أزياؤهن أنيقة وزينتهن جميلة. ويذكر ذلك عاشور بشيء ما فيسأل صاحبه بصوت مرتفع قليلا: هل رأيت أيامها يا سعادة البك أحدًا أصابه سعار جنسي لأنه رأى امرأة تلبس المايوه على البلاج؟ وهل قرأت أيامها بنفسك عن أي جرائم اغتصاب؟

لا . لم ير البهنسي بك ذاك ولم يقرأ عن هذا. غير أنه يريد أن يغير الموضوع الشائك فيقول لعاشور وهو يضحك:

ـ على فكرة، أتعرف أنني اكتشفت من الذي يسكن القصر؟

يتطلع له عاشور مبتسمًا مدركًا أن صديقه يمزح فيكمل البهنسي: هو بالضبط جبلاوي نجيب محفوظ ولا أحد غيره! سئم أولاد حارتهم فانتقل إلى حينا المنكوب ليعذب أولاد الأفندية.

يضحك عاشور ويقول: أو ربما يكون القصر قلعة كافكا.

لم يكن البهنسي قد قرأ رواية كافكا فلم يفهم الدلالة الرمزية لحكاية القلعة هذه، لكنه هز رأسه موافقًا وقال بعد لحظة تأمل استوعب بها جرعة من كأسه:

ـ كأنه ما كان ينقصنا هو هذا القصر، كما لو كانت هناك أزمة في الألغاز!

أكمل عاشور وقد تجدد انفعاله: نعم، كما لو كانت كل الأشياء الأخرى مفهومة في هذه المعيشة الزفت والبلد الـ....

رفع البهنسي يده أمام وجه صديقه وقال بحزم: كفى!

انتاب عاشور الخجل عندما لاحظ أنه رفع صوته أكثر مما ينبغي، وأن كل الأنظار في البار مصوبة نحوه، رفع كأسه ولوح بها لكل من حوله وهو يقول بابتسامة مذنبة: أنا آسف!

أما البهنسي فكان يجول ببصره متلصصا يفحص الزبائن: هل منهم من يعرفه؟ ثم نقل الحديث بعد ذلك ببراعة إلى بيكاسو الحقيقي. كان عاشور يعتبره أعظم عبقرية عرفها تاريخ الفن، بينما يعتبره البهنسي منحلا ومهرجًا وهادمًا لقيم الفن الحقيقي. احتدم النقاش بين الصديقين حول الرسام السوريالي فيما تبقى من الأمسية، ولكنه احتدام لا خطر منه يشبه مشاجرات ضيوف الندوات التليفزيونية في الموضوعات المسموح بها.

(٥)

في الليلة نفسها كان يدور حوار آخر بين حراس القصر.. والحراس بالطبع ناس من الناس لهم مسراتهم وهمومهم. صحيح أنهم أشداء على الغرباء لكنهم متعاطفون فيما بينهم. يقضون معظم أوقاتهم في مكان العمل فلا يخفى سر واحد منهم عن أخيه. لحظتها كانوا متجمعين بجوار السور يستمعون في انتباه إلى زميل لهم يشرح شيئا، هو «جابر» أقدمهم في العمل وأكبرهم سنًّا.

كان جابر يقول إنه يعاني من البواسير منذ سنين. أجرى جراحتين ومع ذلك لم يتوقف النزيف ولا الألم. كل المجالس ـ لا مؤاخذة ـ عبارة عن تعنية وعذاب. داخ طويلا مع الأطباء وجرب كل المراهم والأقماع وحتى وصفات العطارين و«لبخات» الأعشاب ولكن دون أي فائدة.

الخلاصة أن له صديقا صالحا هو أستاذ في كلية الهندسة وصالح كأنه ولي من الأولياء. سمع أن له بالفعل كرامات ويعرف هذا الأستاذ مشكلته ويعرض عليه عرضا لم يسمع بمثله من قبل: أن تجري له الأرواح جراحة تخلصه من البواسير إلى الأبد. قال له إن الذين يجرون هذه الجراحات الدقيقة هم من نوابغ الأطباء الأتقياء الذين انتقلوا إلى العالم الآخر. يمارسون المهنة من هناك بطرق روحية لعمل الخير لا غير. وإن كان لابد أيضًا من واسطة من الأرض. لابد من اتصال يجريه معهم أحد الصالحين لعرض الحالة واستئذانهم ليقوموا بالتدخل الجراحي. جربهم صديقه الجامعي في جراحات أصعب من البواسير بكثير ونجحت بنسبة مائة في المائة.

يضحك أحدث الحراس التحاقا بالعمل المسمى أمين، فينهره بقية زملائه ويغمغم معتذرا فيقول له زميله عثمان بصوت عميق وقور: يا أخ أمين أنت طيب ولكن لو ظللت على تهورك فلن تكمل معنا. ثم يلتفت إلى جابر قائلا باهتمام شديد: وبعد؟

يرد جابر قائلا هذا هو كل شيء. هو يصدق بالطبع كل ما يقوله صديقه الجامعي الصالح ويثق أنه لا يكذب أبدا لكنه مع ذلك خائف.

يسأله عثمان: هل طلب منك شيئا لاستشارة أرواح الأطباء؟

فيرد: أبدًا. لم يطلب شيئا غير تاريخ ميلادي وفصيلة دمي واسم أمي الثلاثي عند ذلك يدلي الحراس بآرائهم في الموضوع وتتداخل تعليقاتهم وأسئلتهم فيرد جابر:

... لا، قال صديقه إنه لن يكون هناك تخدير ولن يشعر بألم.

... نعم، هو يفكر مثله، يسأل نفسه ما الذي ستخسره يا جابر لو حاولت؟ ولكنه خائف.

... فقط سيتلو أدعية خاصة قبل النوم يزوده بها صديقه ليلة الجراحة.

... نعم ستجري الأرواح الجراحة أثناء نومه ولن تكون هناك مشارط ولا دماء.

... لا يعرف إن كان الأطباء الراحلون يعالجون آلام الأسنان أم لا. سيسأل.

... ما الذي يخيفه؟ لا يدري. ربما لأنه لم يجر جراحة من هذا النوع من قبل. يرتفع صوت عثمان الغليظ الذي لم يشارك في هذه الأسئلة ليقول بهدوء ولكن بشكل قاطع:

ـ ابتعد عن هذه السكة يا جابر.

يحدث صمت ويتطلع الجميع نحوه.

يكمل: لك حق أن تخاف. أنا أعرف هذه المسالك.

أصدق أن صاحبك رجل صالح وأنه يريد أن يخدمك ولكن فلتحذر أنت وليحذر هو. هل تعرف يا جابر ما يمكن أن يحدث لو وقع اسم أمك وهو يتصل بالأرواح على سمع جن كافر؟

ثم سكت لحظة قبل أن يضيف بلهجة حزينة: لو رقد عليه جن شرير يا جابر فستتحسر على أيام البواسير... اسألني فأنا أعرف.

لكن لم يكن هناك وقت ليسأل جابر زميله.

فجأة ينقطع التشاور وتعيد القعقعة المفاجئة الحراس من عالم الأرواح إلى الأرض.

يتطلعون في ذهول إلى ما يحدث وسط الشارع الذي تسده الحواجز الحديدية.

(٦)

كيف لم ينتبهوا إلا والعربة الصغيرة تتدحرج فوق المطب الصناعي؟ كيف غفلوا عن واجبهم الأول؟

هجموا جميعًا على الرجل الأشيب فأصابه الذعر. أسرع وهو يدفع أمامه عربته النحيلة فزاد ارتجاجها وصريرها، تناثرت بعض حبات السوداني على الأرض، ورسم الدخان الأبيض المتصاعد من المدخنة ضبابا متعرجا مع تقافز العربة.

لم يستغرق ذلك غير لحظة. في ثوان أحاط الحراس جميعًا بعربة السوداني وأمسكوا بذراعي صاحبها العجوز الذي ظل مع ذلك متشبثا بمقودي عربته الخشبيين.

ـ بطاقتك.

ـ لا أستطيع أن أخرجها يا باشا إلا إن تركت ذراعي.

لكن صوت جابر يرتفع وهو يشير لزملائه:

ـ ليس هنا. أخرجوه هو وعربته أولا.

تغيرت لهجة جابر الآن من وداعة التشكي إلى لهجة مهنية حازمة. يعيد الأمر على الحراس: أخرجوه نحن لا نعرف ماذا في هذه العربة المصيبة.

يشير إلى عدد من الحراس بأن يبقوا في الموقع بينما يتبع هو الآخرين الذين يدفعون البائع أمامهم. عكسوا بعنف اتجاه الرجل والعربة نحو الشارع العمومي وأرغموه على أن يقود عربته وهم يقبضون على ذراعيه ويدفعونه في ظهره.

ينفذون من بين فتحات الحاجز الحديدي ويقفون في الشارع العمومي على بعد مسافة من القصر.

يرفعون قبضاتهم عن ذراع واحدة ليخرج البطاقة من جيب جلبابه الداخلي. يتفحص جابر البطاقة تحت عمود النور ويبدأ تحقيقه يسأل الرجل عن عمله.

... يبيع الفول السوداني.

... هل لديه ترخيص بائع جوال؟

... لا هو بائع سريح (يا باشا).

يهوي كف مفاجئ له رنين على قفاه: أجب على قدر السؤال.

يكتم العجوز تأوهه. تعوّد من زمن بعيد على احتمال النوازل بصبر.

... لـ.. لـ.. لا. ليست معه رخصة بائع شيال (يا باشا).

يتطلع جابر في البطاقة من جديد مقربا إياها من عينيه ثم يضحك.

... المهنة المكتوبة في البطاقة تاجر.. تاجر في أي شيء يا شاهبندر؟

... كان ينوي بعون الله أن يفتح «مقلة». أراد أن يدخر و...

يقاطعه جابر بصوت خشن: يكفي هذا اللعب. من أنت يا شاطر؟ من أرسلك؟ ماذا في هذه العربة؟

لا يعرف بم يجيب.. هل يضربونه مرة أخرى لو قال إنه بائع سريح؟

ـ فيها فول سوداني (يا باشا).

ـ وماذا أيضًا؟

ـ لب أبيض ولب أسمر.

ـ وقنبلة؟

ـ حد الله يا باشا. أنا أرزقي على باب الله.

ـ إذن كم دفعوا لك؟

لكن جابر يتذكر شيئا وسط مجرى التحقيق فيصدر أمرًا إلى عثمان:

ـ بسرعة جهاز الكشف.

يجري عثمان ملبيًا الأمر. ويقترب أحد الحراس من جابر يجذبه من ذراعه ويهمس في أذنه: رأيت هذا الرجل كثيرا يتجول بعربته في شوارع قريبة من هنا.

فيرد جابر هامسا بدوره: إذن فالملعون كان يراقبنا من مدة دون أن ندري؟

يعض الحارس على شفته ويقول خجلا من نفسه: فاتتني هذه. سامحني يا أخ. يعود جابر إلى مخاطبة الكهل:

ـ رد دون استعباط. هل أنت أعمى مثلًا؟ ألم تر الحواجز التي تسد الشارع؟ من الذي أمرك بالتسلل منها؟ وكم دفعوا لك؟ أم أنك واحد منهم؟

تتغير لهجة جابر للمرة الرابعة فيقول بصوت غاضب منبوح: تكلم يا إرهابي يا بن الكلب!

يفهم الحراس الآخرون رسالة خاصة من هذا السؤال ومن التغيير الأخير في اللهجة، فينهالون على البائع من كل جانب ضربا بالأيدي والأرجل، على وجهه ورأسه وفي جنبيه وظهره وساقيه. ولم يستطع

في هذه المرة أن يكتم ألمه فصرخ مستغيثا يا باشا يا باشا في عرضك يا باشا.. انجدني يا باشا...

في تلك اللحظة عاد عثمان مهرولا ونقل لجابر رسالة موجزة: جهاز الكشف في السيارة، والسيارة مغلقة. مفتاحها مع الباشا، والباشا يصلي العشاء في الزاوية.

يهز جابر رأسه، ولكنه يقول في غضب دون أن يحول وجهه عن عثمان.

ـ يا أمين بطل دناوة. ليس هذا وقته.

يكف أمين عن كبش السوداني والتهامه، يخرج أيضًا بعض الحبات من جيوبه ويعيدها إلى العربة. كان قد سمع الرسالة التي حملها عثمان فأراد أن يصلح غلطته.

قال: يا باشا هل هذه العربة مشكلة؟ ضربة واحدة..

تراجع للخلف خطوتين وثنى ركبته واندفع نحو العربة فارتفعت صرختان: صرخة جابر الذي أسرع يتشبث بذراعي أمين ويجذبه للخلف، والبائع الذي نسى ألمه واندفع يحتضن عربته بامتداد ذراعيه وهو يصرخ: السبوبة!

وقال جابر لأمين وهو يكز على أسنانه: يا غبي! لو في العربة قنبلة فعلا كنت ستقتلنا كلنا.

ثم دفع أمين بيده بعيدا وعاد يخاطب العجوز مهددًا:

ـ ألن تعترف يا ولد؟ هل أطلب لك البوليس؟ ستندم لو جاء البوليس وحكيت لهم عما فعلت. ستندم فعلا.

التفت العجوز نحوهم وقال فجأة بنبرة تحد سافر:

ـ تريد أن تعرف؟ الباشا هو الذي بعثني.

ثم صرخ من جديد بأعلى صوته:

ـ يا باشا.. يا باشا..

ـ أي باشا يا حمار؟

ـ لا حمير إلا انتم!

(٧)

قالها رجل طويل يرتدي ملابس مدنية أنيقة خرج من مدخل عمارة مواجهة في الشارع العمومي، تقدم من الحراس المتجمعين حول العربة فصاح جابر متعرّفا ومذعورا: الباشا الكبير!

ثم تخشب جسمه ورفع يده بتحية رسمية. وعندما سمع بقية الحراس لقب رئيسهم الأعلى الذي لم يره أحد منهم أبدا، ولا يعرفه شكلا إلا أقدمهم في الخدمة، تجمدوا في أماكنهم في وقفة انتباه ورفعوا أيديهم بالتحية مثل جابر. أشار لهم الباشا الكبير باشمئزاز فأنزلوا أياديهم المرفوعة، لكنه صاح بصوت عال آمر دون أن يرفع رأسه:

ـ كله يقفل الشبابيك.

تتابع على نحو سريع صفق الشبابيك المفتوحة واختفت وجوه الجيران التي كانت تطل على ما يجري.

قال المهندس عاشور لزوجته في تشف بعد أن أغلقت الشيش: الحمد لله. وقعوا في بعض!

لكن زوجته أشارت بيدها عبر الشباك المغلق إلى حيث الكاميرات والميكروفونات فلزم الصمت على الفور.

في الشارع خاطب الباشا الكبير جابر بهدوء شديد:

ـ متى نويت أن تجري العملية إن شاء الله؟ وكيف يمكن أن نهنئ أطباءك لو نجحت العملية؟

هل هكذا علمناكم يا غجر؟

لم تخرج من فم جابر غير كلمة متقطعة: يا... با... شا...

غير أن العجوز اندفع نحوه وقال متشكيا: ضربوني يا باشا! نفذت أوامرك وصبرت عليهم فضربوني ناديت عليك كثيرا فلم تسمعني يا باشا.

لم ينظر الكبير إليه لكنه أخرج من جيبه ورقة مالية قدمها له بامتداد ذراعه وهو يقول بلا مبالاة: امش أنت الآن.

- أمرك يا باشا.

بدأ يدفع عربته لكنه توقف أمام جابر حتى كاد يلتصق به وزعق في وجهه آمرًا:

ـ بطاقتي يا أفندي!

مد جابر يده ذاهلا فاختطف منه البطاقة دون أن يرخي عينيه عن وجه معذبه وكرر بسعادة وهو ينصرف الإهانة التي ابتكرها: بالسلامة يا.. أفندي!

عاد الباشا الكبير يخاطب رجاله وغضبه يتصاعد:

... هو لا يصدق نفسه حتى الآن. لا يصدق فعلا أن ما حدث قد حدث. كان يريد فقط أن يعرف كيف سيتصرفون لو حاول أحد أن يعبر الحواجز الحديدية: هل سيتركونه طويلا أمام الحاجز؟ وكيف سيفتشونه هو وعربته إلكترونيا؟ ولكن أن يصل الأمر إلى أن يتوغل حتى الأسوار ويدمرها لو كانت هذه نيته! كيف سيبرر ذلك للناس؟ هل نلومهم لو طردونا جميعًا؟

ارتفع صوت أمين فجأة كأنما بالرغم منه: ولكن من هم الذين سيطردوننا يا باشا؟

ارتفعت أصوات زملائه همسًا وصراخًا: اسكت. اخرس لا تضيعنا يا أمين! فدافع عن نفسه محتجًّا وإن تهدج صوته وكأنه على وشك البكاء: ما الغلط؟ ألا يجب أن نعرف من الذين نحرسهم بالضبط لنؤدي عملنا كما يجب؟

عاد لغط زملائه من جديد يبرئون أنفسهم من تهوره، لكن الباشا الكبير قاطعهم مخاطبًا أمين:

ـ تريد أن تعرف من تحرس؟ أنت تحرس أكل عيشك يا أفندي.. فهمت؟ لو كررت هذا السؤال مرة أخرى أمامي أو من ورائي فستكون آخر ساعة عمل لك هنا .. فهمت؟

لكن ما أنقذ أمين لحظتها هو ظهور الباشا الصغير الذي وصل جريا وهو يرفع جهاز الكشف الإلكتروني في يده مثل مضرب التنس.

قال الباشا الكبير بهدوئه المبالغ فيه: حرمًا.

فتجمدت يد الباشا الصغير المرفوعة بالجهاز في لقطة صامتة. ولم تدم هذه اللقطة طويلا. ارتطم به الجسم الثقيل من الخلف فطرحه على الأرض.

ثم بدأت صرخات الحراس جميعًا تختلط بالنباح المسعور وأخرج الباشا الكبير مسدسه من جيبه ولكن لم يطلق غير طلقة واحدة طاشت في الهواء قبل أن يسقط بدوره على ظهره وهو يصرخ.

فتح بعض الجيران الشبابيك من جديد على صوت الطلقة والنباح فلم يروا أي شيء. كانت أنوار القصر مطفأة والحي كله في ظلام دامس، لكنهم ظلوا لفترة يسمعون حشرجات مختنقة في الطريق مع زمجرة نباح متصاعدة وبكاء الأطفال في البيوت وصراخ النساء.

ظلوا يرهفون السمع غير أن كل الأصوات الآتية من الطريق انتهت بعد فترة قصيرة وإن ظل الظلام الحالك يلف الحي.

عندما عادت الأنوار بعد ساعة تقريبا فتح بعض الجيران جزءًا من نوافذهم فاستبدت بهم الحيرة. لم يروا كما توقعوا جرحى أو قتلى أو حتى دماء على الأرض. كان سواد الأسفلت يلمع نظيفا تحت الأضواء الصفراء كالعادة.

الذين تواجه بيوتهم القصر رأوا الأضواء تتلألأ في حديقته وتنير أسواره. سمعوا لهاث الكلاب المعتاد ورأوا حراس القصر في أماكنهم بثيابهم البيضاء الناصعة.

سأل المهندس عاشور زوجته وهو يحدق من خلف الشيش المغلق:

ـ هل كنا نحلم؟ هل نحن الآن نحلم؟

قالت زوجته وهي تنظر مثله من وراء الشيش: ولكن هل هم نفس الحراس أم هم أشباه لهم؟

تهالك المهندس عاشور على مقعد مجاور للنافذة وهمس:

ـ قولي أنت .. ما الذي يحدث لنا؟

ثم هب فجأة من مكانه وفتح مصراعي الشباك بعنف وضجيج وصرخ بأعلى صوته:

ـ قولوا !! ما الذي يحدث لنا؟ ما الذي يحدث؟

فجاوبه الصمت.


لم أعرف أن الطواويس تطير ...



العشب الأخضر المروي يمتد حولي بساطًا نديًا يفرش الحديقة الشاسعة، تتوسطه حشائش طويلة متفرقة تجاوزتها عربة تشذيب العشب، ووحدها تلك الحشائش الطويلة تلمع أطرافها في الشمس رءوس رماح مذهبة..

«فوددت تقبيل الرماح لأنها..».

أهلًا بحضرة الماضي! أهلًا بأيام التلمذة والمعلقات وبالسيد عنترة!

وأهلًا بحضرتي في الماضي وأنا أجلس في الحديقة التي نعمت بها سنين طويلة من عمري المنقضي. جميلة مثلما كانت دائمًا (ربما أجمل؟) تحوطها الأشجار الباسقة المعتنى بها وتتوسط عشبها الزاهي وتظلل ممراتها المرصوفة، أشجار من كل نوع، مجلوبة من كل قارات الأرض تتآخى في تشكيل منسجم مع أشجار البلد.

لكن النخل لا وجود له.

تزحف شمس حامية على الدكة الخشبية التي أجلس عليها فأتحرك قليلًا في اتجاه جزئها الذي يحميه ظل شجرة كستناء تنفض أوراقًا بيضاء هشة كالقطن المندوف إيذانًا باقتراب الخريف. أركز بصري على الأشجار كأني أحاول التعرف عليها. ما الذي تحتفظ به الذاكرة من هذه الحديقة ومن هذا المكان الذي ظللت أتجول فيه سنة وراء سنة؟ لا شيء تختزنه ذاكرة البصر. كأني لم أر هذه الأشجار من قبل. وما الذي أذكره من سنوات العمل الطويلة في تلك الهيئة الدولية المهيبة في هذا البلد الأوروبي؟

أقل القليل. كل شيء يتبخر.

لكن انتظر!

أنا أتذكر مع ذلك هذه التي تتقدم نحوي مقبلة بخطى مسرعة من مبنى الهيئة الأبيض. أذكر وجهها الجميل والغمازتين في خديها وأذكر ابتسامتها التي لا تغيب والتي تعدي بالابتسام، لكني لا أذكر مع ذلك اسمها.

قالت وهي تجلس إلى جانبي على الجزء المشمس من الدكة صباح الخير فرددت عليها بالمثل.

في هذا البلد تستمر تحية الصباح حتى غروب الشمس.

كانت تمسك بيدها علبة سجائر وقدّاحة، وبمجرد جلوسها أشعلت سيجارة وقالت كأنها تؤنبني:

ـ لم نعد نراك منذ فترة.

قلت ضاحكًا: تقصدين منذ سنين! خرجت إلى التقاعد من زمن طويل وعدت إلى بلدي. أنا مجرد زائر.

ضحكت بدورها وقالت: حقًّا! مرّ كل هذا الوقت؟ لكن كأنما بالأمس فقط. ما أسرع ما يمر الزمن!

سكتت لحظة واستغرقت في التدخين وهي تسحب دخان السيجارة بسرعة وشراهة ثم قالت: ومع ذلك فأنا أحسدك. أتمنى أن تمر بسرعة أيضًا سنوات أشغالي الشاقة هنا لأتمتع مثلك بحريتي.

ـ لا تحسديني ولا تتمني هذه الحرية فهي لا تساوي شيئًا.

قالت وهي تلوح نحوي بسيجارتها المنتهية: لماذا؟ هل تعرف مثلًا أنهم أصدروا منذ أيام قرارًا بمنع التدخين في كل الطوابق وفي جميع المكاتب حتى ولو كنت تجلس وحدك؟ أين حقوق الإنسان؟ وكيف إذن لا أتمنى هذه الحرية؟...

وأكملت وهي تنظر نحوي بابتسامة مواسية: ثم إن لكل عمر جماله!

فضحكت من جديد قائلًا: أحفظ أنا أيضًا هذه العبارة!

لكني فجأة تذكرت كل شيء وهي تطالعني بوجهها. كيف أمكن أن أنسى؟ كنا نعمل معًا في الطابق نفسه من المبنى، وكثيرًا ما شربنا القهوة معًا في مقصف الهيئة بصحبة صديقها وزملاء آخرين، رجعت إلى أنفي رائحة البن الزكية وهي تهل علينا حين نقترب من المقصف في استراحة منتصف النهار. تتكون وسط لغط الزحام مجموعات

تلقائية من موظفين وموظفات من جنسيات شتى يعملون في طوابق المبنى التسعة. نجلس في العادة معًا، نفس الأشخاص على الموائد نفسها تقريبًا، نصف ساعة كل يوم من أيام العمل. نتبادل الحديث والنميمة عن الجالسين حولنا مثلما ينمّون هم بالتأكيد علينا. نصف ساعة ثم نفترق عائدين إلى العمل وننسى بعضنا البعض حتى اليوم التالي. استمرت هذه اللقاءات العابرة يومًا بعد يوم وسنة وراء سنة، لكني لا أذكر الآن اسمها. أذكر السيد عنترة وأنسى هذه التي عملت معها لسنين. وهل تظن أنها هي تذكر اسمك؟

غير أني قلت فجأة:

ـ كيف حال نيكولا؟

كنت فرحًا بنفسي لأني تذكرت اسمه. لم أدرك خطئي إلّا عندما غاضت بسمتها الدائمة للحظة قبل أن تقول بلهجة عابرة:

ـ انفصلنا منذ مدة..

غمغمت: أنا آسف، لم أكن أعرف بالطبع.

لكنها أكملت وقد رجعت إلى بسمتها التقليدية ولهجتها المازحة: السافل! أرأيت؟ بعد كل ما فعلته من أجله!

لزمت الصمت. كنت أعرف مثل كثير من الموظفين أن نيكولا الأشقر الوسيم له زوجة وأولاد في بلده في الكتلة الشرقية، أيام كانت هناك كتلة شرقية، ولكن له أيضًا هنا هذه الانجليزية المرحة التي تعشقه. كانا ثنائيًا مميزًا، هو بجسده الرياضي وشعره الأشقر المتداخل الخصل يشبه وسامة التماثيل الرومانية، وتطل من عينيه

نظرة حالمة أسيانة كانت بالتأكيد من جملة أسلحته، فقد اجتذبت الكثيرات قبل أن يستقر على هذه الجميلة الباسمة. بدت علاقتهما دائمة ومسلّمًا بها على أيامي.

ظننت أنها ستنصرف عندما أنهت سيجارتها لكنها فتحت علبتها وأخرجت سيجارة جديدة أشعلتها وقالت وهي تقلب نظرها في السماء:

ـ الشمس اليوم رائعة.

ـ حامية.

ـ أتظن؟

كان وجهها متضرجًا تلمع حبات دقيقة من العرق في جبينها لكنها بدت مستمتعة بالشمس وقالت دون أن تنظر نحوي:

ـ معذرة لهذا السؤال.. ولكن أنت لك خبرة بالحياة أكثر مني.. قل لي هل كل الرجال.. كلهم هكذا؟

ـ «هكذا» كيف؟

لوحت بيدها وهي تكرر: هكذا!.. أنت تفهم.

ـ لا. لا أفهم. أنت مثلًا كنت تعرفين منذ البداية أن نيكولا سيرجع يومًا إلى بلده وإلى أسرته.

ـ بالطبع، ولكن لم أكن أعرف أنه سيجري يومًا ما وراء «جونلة أخرى»! هكذا، بين ليلة وصبح، دون إنذار. ثم إنه قد انفصل عن زوجته ولعلمك فهو لن يرجع يومًا إلى بلده.

ـ لن يرجع؟

ـ لا، لن يرجع.

سألت نفسي أخطأ أو أصاب؟ ربما بعد الغياب الطويل في الغربة لا يعود للإنسان في الحقيقة أي بلد.

قالت: لم تجب عن سؤالي.

ـ وكيف تريدين مني أن أجيب عليه؟ ما أعرفه هو أن كل الرجال مثل كل النساء!

ضحكت وهي تقول: تقصد أنهم كلهم سفلة؟

ـ أقصد كلهم بؤساء.

استمرت في الضحك وهي تكرر: لا! لا! لا!.. قلت إن لك خبرة ولكن لم أقصد أن تسمعني مواعظ!

ـ ومن قال إني أعرف أي مواعظ؟ أنت سألتني عن خبرتي وكل ما أردت قوله إنني في حياتي قد جرحتني نساء وإني أيضًا قد جرحت نساء وحين أتذكر كل هذه القصص القديمة لا أكاد أصدق أني كنت ضعيفًا إلى هذا الحد مرة وقاسيًا إلى هذا الحد مرة أخرى. لماذا؟ أقصد ما المعنى؟

سكتّ فقالت وهي تقوم وتدعس سيجارتها في الأرض وتودعني بابتسامتها الجميلة:

ـ ربما عندما أصل إلى التقاعد سأفكر مثلك أما الآن فأنا أفضل ما فهمته من كلامك أولًا عن سفالة الرجال والنساء. أما أنت فلا تحزن

هكذا!! ربما يجب أن تجرب من جديد، لم يفت الوقت بعد لتستفيد من كل ما تعلمت من خبرتك..

جاوبت ابتسامتها وأنا أشير إلى شعري: بالطبع، لكل عمر جماله!

وفي تلك اللحظة وهي تتأهب للانصراف مرَّ أمامنا سرب من الطواويس يجري على العشب. كانت ترفرف بأجنحتها وتجرجر ذيولها فبدت أشبه بديوك رومية مذعورة تفر من مطاردة. مرقت أمامنا ثم اختفت وراء المبنى.

قالت وهي تتطلع في اتجاه الطواويس بخيبة أمل: والآن هذا أيضًا! ستتجمع هذه الوحوش تحت مكتبي وتبدأ في العواء. صراخها يدفعني إلى الجنون!

ـ تعرفين الشرط.

ـ لسوء حظي. ولكنها شاخت كثيرًا فلماذا لا ترحل؟

ـ لا يمكن أن تكون دائمًا هي نفس الطواويس. هذا بالتأكيد نسل جديد.

قالت بإصرار: هي طواويس شائخة!

قلت: ولكنك منذ قليل كنت تتحدثين عن جمال الأعمار.

فابتسمت: أعمار البشر، لا الطواويس!

يعرف كل العاملين هنا الشرط الذي وضعه الثري المحسن حين أهدى من أملاكه تلك الحديقة الجميلة للهيئة قبل عشرات السنين.

كانت الهبة مشروطة بالحفاظ دائمًا على الطواويس حية وحرة في الحديقة. لماذا كان مغرمًا بالطواويس إلى هذا الحد؟ هي طيور جميلة بالفعل، تفتنني ألوانها. الرقبةَ الزرقاء اللامعة والصدر والأجنحة البنّية ـ البيضاء، والذيول الطويلة بألوانها الزرقاء والخضراء المرصعة بزهور من دوائر بيضاء ومذهبة ـ ألوان يستحيل على أي رسام أن يجمع بينها بمثل هذا الانسجام الباهر الذي تأتلف به في ريش هذه الطيور الأرضية الداجنة ـ اعتدت أن أقف طويلًا بالقرب منها أتأمل هذه اللوحة الحية الباذخة الألوان وهي تبرق وتلمع وتتغير درجاتها في الضوء وفي الشمس، بينما تحرك الذكور في خيلاء رءوسها المتوجة بريشاتها البيضاء الدقيقة وتستعرض ذيولها المرقشة وهي تجرجرها وراءها أو تقرر في لحظات أجهل أسبابها أن تفرد مروحة ذلك القوس البديع البهي وتبحر في شراعه.

كان محقًّا إذن ذلك الثري في عشقه لهذا المهرجان اليومي المتلألئ بألوانه التي تخطف البصر، ولكن هل كان محقًّا أيضًا في إصراره على إطلاقها حرة في مكان للعمل؟ كان يمكن أن يطلب تخصيص ركن لها وينتهي الأمر، إذ لا شيء في الواقع يفوق جمالها غير قبح أصواتها. نعيق الغربان أرحم منه حين تتجمع مع بعضها البعض ويبدأ السرب في الصياح! هي صيحة واحدة، نغمة واحدة، عالية ومنكرة، تظل تتبادلها طائرًا وراء الآخر في رتابة وإلحاح لا ينقطع.

أذكر حين كان يتصادف أن تتجمع تحت مكتبي في لحظة عمل وتبدأ غناءها البشع، الذي لا أدري لماذا يبدأ ولا متى ينتهي، أني اعتدت أن أغلق النافذة وأضع يدي على أذني، ولكن كان يستحيل

أن أركز على أي عمل إلى أن تقرر من تلقاء نفسها الكف عن الصراخ أو الانصراف إلى مكان آخر في الحديقة. ومع ذلك فلم أكن مستعدًا في أي لحظة أن أضحي بمتعة النظر من أجل راحة الأذن، ولا أظن أن زميلتي المازحة دائمًا تكرهها مثلما تدعي.

لم تكن قد ابتعدت عني بضع خطوات إلّا وجلجلت في المكان أجراس عربة مطافئ قبل أن نراها تتجه مسرعة عبر الممر الرئيسي في الحديقة نحو مدخل المبنى الواقع في الناحية الأخرى من مجلسي. قمت بصورة تلقائية وأسرعت فلحقت بزميلتي السابقة واتجهنا معًا وقلّة كانت تتجول في الحديقة نتبع عربة المطافئ. وقالت هي ونحن نكاد نجري بلهجة من التشفي الكاذب:

ـ هل رأيت؟ ها هو حريق في المبنى لا دخل فيه للتدخين!

لكن حين وصلنا لم نجد أي حريق في المبنى. كان الموظفون يطلون من نوافذ الطوابق التسعة يستطلعون مثلنا ما يحدث ويصوبون أبصارهم نحو عربة المطافئ الواقفة أمام المدخل تضيء أنوارها الحمراء المتقطعة. أما أنا فنسيت كل ما حولي وخفق قلبي وأنا أرجع مرة أخرى إلى ركن الحديقة الذي كنت أطل عليه من مكتبي.

هضبة صغيرة معشوشبة تتوسطها شجرة أرز عملاقة تحيط بها شجرتا تنوب هرميتان أطول حتى من شجرة الأرز. صادقت هذه الأشجار وقضيت أوقاتًا طويلة أتابع من نافذتي كل أحوالها. أتأمل خضرتها الزاهية التي لا تغيب حين تذبل أوراق الأشجار الأخرى المحيطة بها وتسقط في الخريف، وأتابعها في الشتاء حين تحتضن الثلج وهو يرسم من أوراق أفرع شجرة الأرز العريضة المتوازية

راحات بيضاء كما لو كانت تنبسط في ابتهال للسماء حين تحركها ريح الشتاء، وأرى الثلج يتكور فوق فروع التنوب المخروطية زهورًا صغيرة قبل أن يتساقط بغزارة فيتكور أجراسًا كبيرة فضية بطول قمع الشجرة المقلوب. وكنت أقول لنفسي لا عجب إذن أن يجعلوا هذه الشجرة رمزًا لعيد الميلاد ما دامت الطبيعة تهديها كل هذه الأجراس البيضاء اللامعة بشارة للفرح.

استغرقتني الذكرى فنسيت حتى فضولي لما يفعله رجال المطافئ، لكن زميلتي جذبت ذراعي وقالت بلهفة وهي تشير إلى أعلى:

ـ انظر!

تابعت إشارتها فرأيت لدهشتي طاووسًا يجثم في هدوء فوق غصن كبير لشجرة الأرز ويتدلى ذيله الأزرق من الغصن الأخضر مشدودًا ومتماسكًا.

قالت صاحبتي في ذهول: كيف وصل هذا الطائر العجوز إلى هناك؟

رددت وأنا بمثل حيرتها: وما يدريني؟ أنا لم أكن أعرف أصلًا أن الطواويس تطير.

كان عدد من رجال المطافئ يقفون أسفل الشجرة ويستمعون إلى تعليمات من رئيس لهم يمسك في يده بوقًا مكبرًا للصوت ومن شخص يرتدي زيًّا مدنيًّا خمنت أنه المشرف على الحديقة أو على رعاية الطواويس لأنه كان يرفع رأسه في قلق كل لحظة نحو الطائر الهارب. وأخيرًا نقلوا من عربة المطافئ سلمًا متحركًا باتجاه شجرة

الأرز وأخذوا يتحكمون آليًا في ارتفاعه، وعندما وصل إلى مستوى الغصن الذي يربض فوقه الطاووس كلف الرئيس واحدًا من رجاله بصعود السلم بعد أن أعطاه هو والمشرف تعليمات أخيرة. صعد رجل المطافئ درجات السلم بحذر وهو يمسك بيده شبكة صيد إلى أن حاذى الطاووس، فصفق له الجمهور الواقف على الأرض والمطل من النوافذ وهو يرمي شبكته على الطائر.

لكن في اللحظة ذاتها التي كان يرمي فيها الشبكة رأيت ذيل الطاووس المتشنج يرتفع ثم فرد جناحيه بصورة خاطفة وحلق طائرًا نحو غصن أعلى من الشجرة نفسها. وقالت صاحبتي بصوت مرتفع: أرأيت؟ هو يطير بالفعل!

وعند ذلك صفق للطاووس كثيرون على الأرض وفي النوافذ مهللين «برافو!».

استاء ضابط المطافئ الذي كان يتابع من على الأرض عمل زميله فأمسك بالبوق وخاطب جمعنا بشيء من العصبية:

ـ من فضلكم الهدوء! الضجة تزيد من عصبية الطائر وتعرضه لخطر السقوط ونحن حريصون مثلكم على حياته.

ضحك البعض من الجمهور المتحلق حول عربة المطافئ، والذي كان يزداد في كل لحظة بمن ينضم إليه من الموظفين الذين خرجوا من مكاتبهم، وارتفعت أصوات البعض الآخر مؤنبة وهي تطالب بالهدوء، وقالت صاحبتي وقد عادت إلى لهجتها المازحة:

ـ أنت مع المطافئ أو مع الطاووس؟

فرددت ضاحكًا: أنا بالطبع مع عجوز مثلي.

اقترب مني شخص من الجمهور الوافد وصافحني وهو يقول:

ـ أنت عدت؟ لماذا لم نرك؟

قلت بحذر: أهلًا نيكولا.

كان وسيمًا وجذابًا كعادته لكن خُصلًا بيضاء كانت تتخلل الآن شعره الأشقر. ثم التفت وقال لصاحبتي بلهجة عادية: أهلًا مارلين.

أخيرًا! مارلين! كان يجب أن أذكر الاسم منذ البدء اسم لا ينسى عند جيلي، فكيف نسيته أنا؟

لم ترد مارلين على تحيته إلا بإيماءة رأس وكررت سؤالها له بلهجة عابرة:

ـ أنت مع الطاووس أو مع المطافئ؟

فرد نيكولا: مع الطاووس بالطبع.

فقالت: مثل صاحبك. مثل كل الرجال! أنا مع المطافئ. هيا! انتصري يا مطافئ!

كان رجال الإطفاء قد زادوا من ارتفاع السلم الآلي وكان الطاووس يقف الآن على الغصن العالي مواجهًا السلم وهو يتنقل بعصبية.

لكن المنظر تكرر بحذافيره. ما إن اقترب رجل المطافئ وهمّ بأن يرمي الشبكة حتى طار الطاووس نحو غصن أعلى لكن في الناحية الأخرى من الشجرة، فارتفع التصفيق والضحك.

كان الجمهور كله الآن تقريبًا مع الطاووس فزاد احتجاج ضابط المطافئ وهو يكرر المطالبة بالهدوء، لكنه كان مشغولًا أكثر من ذلك بتوجيه تابعيه لنقل السلم إلى الناحية الأخرى من الشجرة المواجهة لشجرة التنوب وبالتشاور مع موظف الحديقة.

ابتعد عني نيكولا بالتدريج ووقف بجوار مارلين التي سبقتنا بخطوات غير محسوسة. لم يتبادلا كلمة، لكني لاحظت أن مارلين رفعت رأسها قليلًا وشدت قامتها كأنها تتأهب لحركة دفاع عن النفس. أما نيكولا، فوقف ثابتًا مركزًا بصره على الطائر البعيد.

أخيرًا قال لها شيئًا لم أسمعه، ومد يده يضعها على كتفها فأزاحت يده برفق وابتعدت قليلًا.

بعد ذلك تطورت الأمور بسرعة. أقبل عدد من رجال الأمن وتجولوا بين الموظفين المتحلقين حول عربة المطافئ وأخذوا يكررون عبارة «تعليمات المدير العام» فبدأت حركة تراجع نحو مدخل المبنى ولاحظت أن الموظفين المطلين من النوافذ قد اختفوا في لحظة حاسمة. إذ حتى من قبل أن ينتهي نقل السلم نحو الناحية التي يقف فيها الطاووس، إذا به في قفزة تحليق جبارة يفرد جناحيه منطلقًا نحو شجرة التنوب، وظل لحظة يتخبط وسط أغصانها وأوراقها الإبرية القصيرة التي لا توفر له استقرارًا مثل الأوراق العريضة لشجرة الأرز، لكنه اهتدى أخيرًا إلى كتلة أغصان متماسكة وقف عليها. كان يتأرجح فوقها قليلًا وهي تتحرك تحت ثقله لكنه حافظ على استقراره وهو ينظر نحونا من مكمنه العالي قبل أن يطلق لأول مرة صيحة عالية منذرة.

وفي تلك اللحظة مر إلى جواري نيكولا ومارلين ضمن العائدين إلى المبنى. لم ينتبها إليَّ ولكني سمعت نيكولا يقول بإلحاح وهو يميل بجسده كله نحوها «ربما لو» وسمعتها هي تقول بلهجة حاسمة «لا! ليس ربما لو! ليس أي ربما!» قبل أن تبتعد عنه وتمضي مسرعة وكأنها تجري نحو مدخل المبنى. ووقف هو ينظر في اتجاهها لحظة قبل أن يتجه إلى المدخل مطأطئًا رأسه.

لم يبق في المكان غيري وقلائل هم مثلي بالتأكيد لا يعملون في المبنى. كان رجال المطافئ يتشاورون مع مشرف الحديقة حول خطوتهم التالية. وكان المشرف يقول في قلق ربما مثلما صعد وحده سينزل وحده، وكان ضابط المطافئ يقول في إصرار لا يمكن أن نتركه هكذا، لابد أن نحاول.

وفجأة وأنا أسمع هذا الحوار العادي طفا في داخلي حزن ثقيل مباغت وأنا أنظر إلى نيكولا الذي يمشي محني الرأس، وأنا أفكر في كل ما جرى: في هذا الطاووس المغامر العاجز وفي نفسي وفي الآخرين في هذا المكان. في حيرة من عادوا إلى بلادهم وحيرة من بقوا في الغربة، في الزمن الذي جرى ويستحيل أن يعود، في الحب المخذول وفي ضياع الحب، في القسوة التي نتعمدها والقسوة التي نمارسها دون قصد، في الشيخوخة وفي الوحدة، بالذات في الوحدة.

غير أني عاينت أيضًا نهاية القصة. انتصر رأي ضابط المطافئ وأعيد تحريك السلم نحو شجرة التنوب واختار الضابط واحدًا آخر من رجاله صعد السلم بخفة وتوقف قليلًا قبل أن يصل إلى محاذاة

الطاووس الذي ظل ساكنًا. وغمغمت بإلحاح تحرك! قاوم! طر! لكن عندما وصل إليه الصائد ورمى شبكته لم يتحرك الطائر. كأنه كان ينتظر. كأنه كان يلقي بنفسه مختارًا في الشبكة.

رأيت الصياد يهبط وهو يحمل الطائر الملفوف في صرة الشبكة البيضاء بيده اليسرى ويعتمد بيده اليمنى السلم وهو ينزل ببطء.

ونظرت نحو الطاووس المأسور الذي كانت بعض ريشاته الملونة تبرز من ثقوب الشبكة وهو ينتفض وقلت لنفسي وأنا أنصرف: يا طائري العجوز أشباهٌ عوادينا.


كلاب
مسعورة



كانا يجلسان في حديقة «الفيلا» على مقعدين متقابلين. هي تحتضن كلبها الأبيض الصغير وتغوص بأصابعها في شعره الغزير تدلكه بحركة متكررة رتيبة، وهو ينظر إليهما صامتا ويكاد يكون شاردا، وقطعت هي الصمت حين قالت لزوجها بهدوء دون أن تنظر في وجهه إنه لا يفهم معنى الكلاب.

... هل يمكنها أن تشرح ذلك؟

... لا، لا يمكنها، فهي مسألة حساسية لا يفيد فيها الشرح. الحساسية إما موجودة أو غير موجودة.

... ومع ذلك فسيكون شاكرا لو قدمت له مثالا واحدا، واحدا فقط، على عدم حساسيته وكيف لو سمحت جَرحَ مشاعرها أو مشاعر الكلب؟

... هو مثلًا لا يرى تعبيرات وجهه عندما يقترب منه «ساكي».

... يتمنى لو أوضحتِ أكثر من ذلك كيف تكون تعبيرات وجهه؟

... سبق أن قالت إنها مسألة إحساس. هي تشعر، في قلبها، أنه يكره الكلب. ترى في وجهه نوعًا من الاشمئزاز عندما يقترب منه «ساكي».

... هذا مستحيل، لأن «ساكي» لا يفارق المدام أبدًا لا في الحديقة ولا في البيت ولا أثناء الطعام ولا حتى في غرفة النوم، فهل يمكن أن يكون مشمئزًا طول النهار والليل؟ بالعكس هو سعيد جدًّا لارتباطها بساكي ولأنه يشغل وقتها.

... آها ! يشغلها عن ماذا بالضبط؟ هي لن تقبل أية تلميحات، فليسحب هذه الكلمة على الفور.

... يسحبها وهو آسف جدًّا إن كانت قد أخطأت فهمه. لم يقصد أي شيء ويرجوها أن تمسح دموعها. تعرف أنه لا يحتمل البكاء.

... ولكنها لا تبكي، لماذا تبكي؟ هذه أوهامه.

... الحمد لله.

... أو ربما تكون تمنياته؟

... لماذا لا سمح الله؟ تعرف جيدًا أنه جاء متعبًا من المكتب وكل ما يريده الآن هو أن يتناول الغداء مع زوجته الجميلة ويرتاح قليلا قبل أن يرجع للعمل.

... طبعا الباشا المهندس المقاول.. رجل الأعمال الدولي.. يتعب جدًّا في المكتب بالنهار وبالليل.

... على يد المدام. أليست هي مستشارته الأولى في كل مشاكل العمل؟ أليست هي من يلجأ إليها لتترجم له العقود والعروض الدولية التي لا يريد أن يطلع أحد على سرها في المكتب؟ من يعرف أكثر منها حجم ما يقوم به من عمل؟

... ولكنه يحمد الله لأن المدام تحب «ساكي» ولأنها مشغولة به.

مشغولة به عن ماذا بالضبط؟

... هو متأسف. لا يقصد شيئًا.

... ليكن. أما عن «ساكي»...

... مرة أخرى؟ سيرجعان إلى «ساكي» مرة أخرى؟ الرحمة!

... فلينظر كيف يتكلم عنه! إنه يكرهه.

... لحظة، لحظة يود أن يسأل المدام بكل هدوء من الذي اشترى هذا الكلب عندما طلبته؟ من الذي يدفع كل شهر الفواتير الفاحشة لغذاء سعادته المستورد من أوروبا، ولطبيب سعادته البيطري، ولكوافير معاليه اللص؟ من؟

... آه! والآن جاء دور الإذلال! الباشا المليونير يستكثر أنها اشترت هذا «الكانيش» الصغير الذي لم يتكلف سوى ألف واحد بدلا من أن يشكرها فليسمع إذن: شوكت ابن عمها اشترى لزوجته

كلب (بول ماستيف) بعشرة آلاف مستوردًا من أوكرانيا، غير واحد آخر له وثالث يتركه في حديقة الفيلا، أما الباشا المليونير فيستكثر على كلبها علب الأكل المستورد، مع أن «ساكي» المسكين يأكل مثل العصافير .«ساكي» في الواقع...

... لا ! هو لن يحتمل أكثر من هذا. ملعون أبو «ساكي» كلب ابن ستين كلب!

... ها هي الحقيقة تخرج أخيرًا. ظل يكابر وينفي مع أن قلبها لا يكذب عليها أبدا، وها هو الآن يعترف: هو يكره «ساكي»!

... ومن الذي يمكن أن يحب هذا الكلب القزم المفشوخ الفم باستمرار وكأنه فخور بأسنانه الصغيرة المشوهة المتناثرة بلا نظام في فمه القبيح؟ هو شخصيًّا لا يعرف إن كان كلبها يريد أن يضحك أو أن يصرخ .تعبيراته ملتبسة: قبيـح. بشـع ثم.. ثم حين يتباهى بالسير على ساقيه الخلفيتين وكأنه حصان يرقص بينما هو لا يزيد عن فأر صغير جبان.. هو.. هو حتى ليس كلبا حقيقيا، بل إهانة لجنس الكلاب. يهرب مذعورا من قطة وليدة.

ثم.. ثم إنه يريد أن يعرف من أين لشوكت ابن عمها هذه الآلاف التي يشتري بها الكلاب المستوردة من أوكرانيا؟ لا يعرف له حتى الآن أي عمل أو أي مورد دخل، فمن أين له الأموال التي يشتري بها الفيلات ويستورد بها الكلاب؟

... غريب، غريب جدًّا كل هذا الكلام. كانت تتصور أنه على الأقل يحفظ لشوكت الجميل.

... إن كانت تقصد حكاية المبلغ الذي اقترضه منه فلتتذكر أنه قد رده كاملا منذ سنوات طويلة.

... وليتذكر هو أن هذا المبلغ هو الذي جعله يقف على قدميه ليصبح بعد ذلك ما هو الآن، ولكنها لا تستغرب هذا الجحود فهي مسألة حساسية كما قالت منذ البداية.

... حساسية أو بلادة أو جحود أو عفاريت زرق، كل هذا خارج عن الموضوع. هو يسأل فقط، من أين للسيد شوكت ابن عمها، وهو بدون عمل معروف كما يكرر ويضغط على الكلام، كل هذه الأموال التي تسمح له باستيراد الكلاب المافتيس أو الفالتيس أو أيا كان اسمها، ثم لماذا من أوكرانيا بالذات؟ ألم يكن يستطيع الانتظار إلى أن تلد أي كلبة مافتيس في مصر؟

... أولا، ودون أن تصرخ مثله ستذكّره بهدوء أن (السيد) شوكت ابن عمها ورث عن جده، الباشا الحقيقي.

... يا سلام! فلتقل هذا لأحد غيره! جده الباشا هو جدها الباشا فما الذي ورثته هي أو إخوتها عنه؟

... ورثت اسمه الذي يكرره الأستاذ المقاول في كل الحفلات والولائم لكي يفتح له أبواب المجتمع والصفقات، قد يكون فم سيادته الآن محشوًّا بالذهب ولكنه لم يولد وفي فمه ملعقة فيها حتى رائحته. ترجوه ألا ينسى أنها ذهبت معه إلى البلد أيام الخطوبة ورأت أسرته الكريمة.. يعني!

... يعني ماذا؟ هو لم يخجل من أصله في أي يوم. أهله فلاحون شرفاء كافحوا لكي يتعلم ويدخل الجامعة، وهم يأكلون من عرق جبينهم وليسوا مثل...

... تكفي هذه الخطب السخيفة. فلماذا إذن يدعو شوكت وأخواتها إلى حفلاته وولائمه ليقدمهم لرجال (البيزينس) ولا يدعو هؤلاء الفلاحين الشرفاء؟

... هل تعايره الآن بأصله؟ أصغر واحد في أسرته أشرف من...

... تكرر الرجاء بأن يعفيها من الخطب السخيفة لو سمح. أما عن «ساكي» الذي لا يعجبه شكله..

... «ساكي» مرة أخرى! سيصرخ! لم يعد يحتمل. لم يعد ي ح ت م ي ي ل!

سيخرج قبل أن ينفجر.. سلام.

... لا. اهدأ يا «ساكي».. اهدأ يا حبيبي.. لا داعي لهذا النباح.. أعرف أنك تفهم كل شيء ولكن لن يجرؤ أحد على أن يؤذيك. وسعادة الباشا المهندس لن يخرج الآن رغم كل صراخه. فما بدأ يجب أن يتم فليجلس من فضله.

... ماذا تقول؟ لا أحد يستطيع أن يمنعه من الخروج. بيت من هذا؟ من هو رب هذا البيت؟

... الباشا المهندس بطبيعة الحال. ولكن لو سمح وتكرم أن يقول لها إلى أين سيذهب؟

... سيخرج والسلام.

... إذن فلن يذهب الآن إلى شقة الهرم؟

... ماذا؟

... ولن يقابل هناك الليلة مدام زيزيت؟

... يقابل مَنْ؟

... سمع جيدًا ما قالته فلا داعي للاستعباط. نعم، حسن أنه جلس ليتكلما بهدوء. هي تعرف من زمن أن عنده شقة سرية في الهرم، وتعرف أنه يقابل فيها في الفترة الأخيرة مدام زهرة.. متأسفة تقصد مدام زيزيت.

... هذه.. هذه.. أوهام.

... ربما ولكنها سترجع الآن إلى مسألة الحساسية. لا تلومه لأنه يرى في «ساكي» كل هذه العيوب وكل هذا القبح. ولا تلومه لأنه يرى أسنانه الصغيرة ولكنه لا يرى قلبه. نعم هو كلب رقيق ليست له مخالب ينشبها في القطط ولكنه يستطيع أن يدافع عن نفسه ولو بالنباح. لا تلومه لأنه يعجز عن الإحساس بالرقة والجمال في «ساكي»، ولكن فليتذكر على الأقل أنه لا يخونها أبدا. على العكس هو يفرح حين تفرح، وإذا مرضت يمرض. لا يقرب الأكل طالما هي لا تأكل. «ساكي» يشعر بها، أما زوجها العزيز فهو لا يكتفي بخيانتها، بل يختار أقرب صديقاتها ليخونها معها.

... يستطيع أن يثبت الآن، حالا، أن هذه أوهام، مجرد أوهام.

... لا داعي لأن يكرر كلمة واحدة لا معنى لها. لا داعي للهروب

من المواجهة. وكما يرى فهي مستعدة للمصارحة ولم تفقد أعصابها لحظة واحدة.

... ما معنى المواجهة الآن؟ وما المطلوب منه بالضبط؟ أن يعتذر لها أو لشوكت أو «ساكي»؟ ويعتذر عن أي شيء؟

... ولماذا هو مرتبك ويقول أي كلام؟ من طلب منه أن يعتذر؟

... إذن فما هو المطلوب؟

... الحقيقة فقط. ما هي هذه الكلمة التي يكررها؟ آه، الأوهام. المطلوب ألا يعيشا بعد الآن في الأوهام. عاشا معها عمرًا كافيًا.

... إذن فهو مستعد أن يقسم أنه لا يرى زيزيت إلا هنا في الفيلا. عندما تأتي لزيارتها.

... مقنع جدًّا.

... تسخر منه؟

... بل الواقع أنه هو الذي يسخر منها. ماذا يظنها بالضبط؟ عبيطة؟

... العفو، هو العبيط فعلا. شخص جاء إلى بيته ليتغدى ويرتاح قليلا فتستدرجه زوجته ساعة للحديث عن الكلاب.

... عن الكلاب فقط؟ أو.. أو ربما معه حق، فعلا عن الكلاب! وكما قالت وكررت منذ البدء مائة مرة فهي مسألة حساسية. وبالمناسبة لم يكن لطيفًا منه تلميحه إلى أنه سعيد لأن «ساكي» يشغل وقتها.

... لم يقصد شيئا ولم يكن يلمح إلى شيء واعتذر لها بالفعل إن كانت قد أساءت فهمه.

... أساءت فهم ماذا بالضبط؟ أن «ساكي» يشغلها عن الطفل أو الأطفال الذين لا تستطيع أن تنجبهم؟

... لم يخطر هذا بباله أبدًا.

... ولهذا بالطبع فقد اعتذر! وعلى العموم فهذا سؤال مهم جدًّا في المصارحة. هو يعرف من مدة طويلة أنها لا تستطيع أن تنجب، فلماذا لم يطلقها ليكون له ولي للعهد أو أولياء للعهد يرثون ملايينه؟ كانت ستفهم وستقدر ظروفه دون أي مشكلة، بل وربما ظلا صديقين.

... ليست هذه أول مرة تفتح فيها الموضوع. ألم تفكر أبدا أنه يتمسك بها لأنه يحبها؟ أليست كل أسرار عمله وحياته معها؟ قال لها أكثر من مائة مرة إنها زوجته وحبيبته وطفلته، وأنه يستغني بها عن الأطفال وعن العالم كله.

... فيما عدا زيزيت بالطبع!

... لا يفهم أبدًا سر هذه الغيرة المفاجئة من واحدة يعرفها منذ سنين طويلة عن طريقها، وليست بينه وبينها أي علاقة من أي نوع. لماذا لا يغار هو مثلًا من شوكت الذي يجده في البيت دون تكليف في أي وقت من الليل أو النهار؟

... لن تكلف نفسها مجرد الرد على هذا السؤال. حيلة قديمة ومكشوفة في الواقع، اختراع أي تهمة للتهرب من الرد على حقيقة لا يمكن إنكارها..

... في هذه المرة قد لا تكون المسألة كما تصورها. ربما يكون للتهمة مبرر..

... إذن فهي ليست تهمة سخيفة فقط، ولكنها غبية أيضًا. هي تربت مع شوكت مثل أي واحد من إخوتها. فما الذي كان يمنعه أو يمنعها من الارتباط لو أرادا ذلك؟ بل ما الذي يمنعها حتى الآن لو كانت تريد؟ لم تتعود ولم تتعلم أبدا أن تخفي مشاعرها. ولكن هناك أشياء من الصعب على إحساسه البليد أن يفهمها. صعب جدًّا جدًّا عليه أن يفهم الصداقة الأخوية بين واحدة وابن عمها.

... لا داعي لفقدان الأعصاب ولا للإهانات. ثم إن كل ما قال إنه لا يغار من شوكت مثل غيرتها من...

... لأنه لا توجد أي مقارنة. ولعلمه الشخصي فهي تعرف عن شقة الهرم منذ سنين ولم تهتم. لم تكن تبالي بنزواته الصغيرة فهو مثل كل الرجال، كلهم يثيرون غثيانها، ولكن أن يصل الأمر إلى زيزيت!

... يقسم بـ...

... لا يجرؤ على أن يقسم بأي شيء! زيزيت نفسها هي التي نقلت لها الخبر. هي التي سربت لها الحكاية عن طريق إحدى الصاحبات ثم تحرت الأمر بنفسها ولديها الآن تفاصيل محرجة له تماما لو أراد. الوهم الوحيد في هذه الحكاية هو أن يصدق أنَّ زيزيت تحبه. الحقيقة أنها أرادته لمجرد أنه زوجها. تغار منها منذ الصغر. كان كل الناس يقولون عنها إنها ملكة جمال النادي وإن زهرة وصيفتها. هذا قبل أن تغير اسمها الجميل الذي كانت تخجل منه لتصبح زيزيت. اعتادت زهرة أن تضحك وتتظاهر بأنها لا تهتم وتقول إن أحدًا لن ينجح في الإيقاع بينهما، لكنها تعرف أن شيئا ظل في نفس زيزيت

ضدها رغم كل المحبة والصداقة والزيارات التي لا تنقطع والقبلات على الوجنتين بمناسبة وبدون مناسبة. وأرادت زيزيت بعد طلاقها أن تنتقم لكل شيء، لزواجها الفاشل ولطلاقها وللمقارنات القديمة ولأن بيتهما لم يهدم بعد وتريد أن تكون هي التي تهدمه. أرادت قبل كل شيء أن تثبت أنها إن لم تكن الأجمل فهي قادرة على أن تسرق زوج صاحبتها الأجمل.

... هو لا يفهم أي شيء من كل هذا الكلام.

... لايدهشها هذا أبدا. فليفهم فقط أنها ليست معه لأنها تحبه ولكن لأنها في الواقع تكره زوجته.

... عظيم. هل يمكن أن يقوم الآن ليرتاح ثم يكملان هذا التحقيق فيما بعد؟

استغنى عن الغداء فهل يمكن أن يرتاح قليلا؟

... حالا، لأنه لم يبق الكثير ولكن كما قالت فإن ما بدأ يجب أن يتم. بالنسبة لشوكت...

... يظن أنهما انتهيا من هذه المسألة.

... لا، ولكنها ستنتهي بسرعة. هي أولا في غاية الدهشة من كل أسئلته عن مصدر الأموال التي يشتري بها الفيلات ويستورد بها الكلاب، ودهشتها أكبر لسؤاله عن تردده على البيت بالليل والنهار. تعتقد أنه يعرف كل الإجابات ولكنه يريد أن يستدرجها بهذه الأسئلة إلى شيء لا تفهمه تماما. هي متأكدة مثلًا أن الباشا

المهندس يعرف أن شوكت هو أيضًا زميل مقاول. صحيح أنه لا يتعامل مع الطوب والأسمنت ولا يدخل في مناقصات أو مزادات ولكنه مقاول العلاقات التي تصنع ذلك كله. إن كان هو يظن مثلًا أنه بنى نفسه بشطارته وبالقرض القديم الذي أخذه من شوكت فهو واهم بالطبع. أهم من ذلك بكثير أن شوكت هو الذي سهل ويسهل كل الصفقات والمناقصات والعقود. ما الذي تفهمه في هذه الأمور هي التي لم تدخل الجامعة بعد الثانوية الفرنسية لأنها أحبته وتزوجته؟ ما الذي تفهمه لكي يعطيها الأوراق لتترجمها ويطلب رأيها؟ من الذي يشير عليها لتعطيه الرد؟ كان شوكت يستطيع بالطبع أن يصبح شريكا له في كل شيء مثلما يفعل مع غيره من رجال (البيزنيس) الذين يعمل شوكت واسطة خير بينهم وبين أصحاب الكلمة الأخيرة في البلد وفي خارج البلد. هو بالتأكيد يفهم مثلما تفهم هي أن الأستاذ المهندس يعرف كل شيء حتى ولو تجاهل أنه يعرف. هو يفهم بالتأكيد أن شوكت يحميه ويخدمه دون مقابل من أجل ابنة عمه لأنه بالفعل (باشا) حقيقي فهل هو يجهل أي شيء من هذا كله؟ هل يجهل لماذا خسر بعض زملائه وخرجوا من سوق «البيزنيس» بينما ظل هو يصعد ويصعد باستمرار؟ فلماذا هذه الأسئلة الآن؟ هل يمتحنها مثلًا؟

... بل الواقع أن هذا.. هذا كلام جديد.

... هي لا تصدق أنه كلام جديد، ولكنه على أي حال كلام أخير. يستطيع الآن أن يذهب ليتغدى ويرتاح أو يرتاح دون غداء أو أن يذهب إلى الهرم أو إلى أي مكان يشاء. ستقول ما بقي عندها لساكي العاقل الوحيد هنا. ما رأيك يا «ساكي»؟ فهمنا أن الباشا المهندس

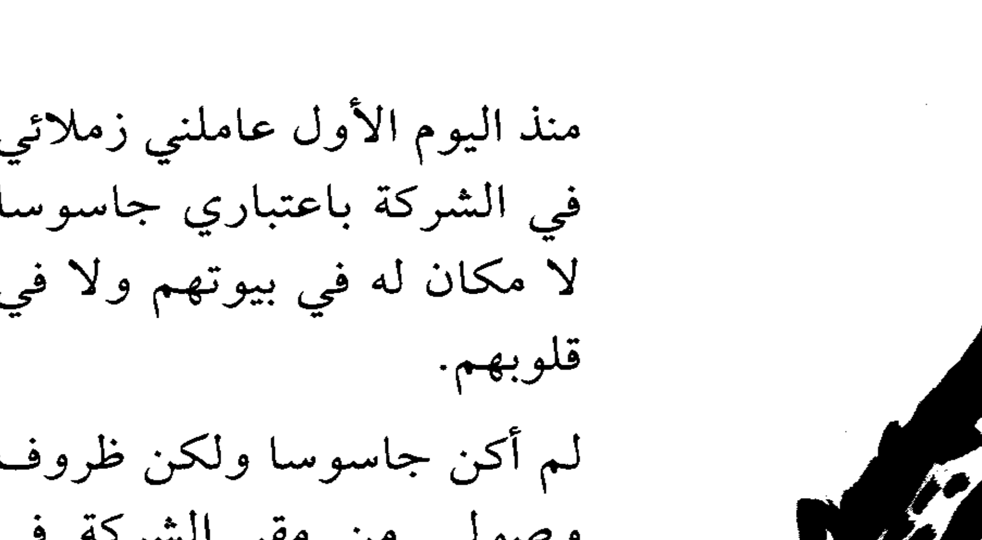
غارق تماما في حب زيزيت هذه الأيام، فما رأيك، هل نقول له إننا لا نمانع في الطلاق؟ آه.. الباشا ما زال واقفا هنا؟ إذن فلنوجه له هو نفسه السؤال بكل هدوء وبكل أدب: هل يريد الطلاق لكي يتزوج من زيزيت؟

... بالطبع لا ولكنه يريد أن يفهم. من حقه أن يفهم بعد كل ما قالته، لماذا كان هذا كله؟ هل هي مثلاً التي تريد الطلاق؟

... ما الذي قاله بالضبط؟ آه.. بالطبع لا.

أنزلت «ساكي» من على صدرها فجرى نحو زوجها وشب على ساقيه الخلفيتين وراح يجدف بساقيه الأماميتين في الهواء وهو يلهث. انحنى الزوج وطرقع بأصابعه متوددا، فنبح «ساكي» في وجهه ثم استدار فجأة وراح يعدو بسرعة ليقفز من جديد إلى حجرها.





منذ اليوم الأول عاملني زملائي في الشركة باعتباري جاسوسا لا مكان له في بيوتهم ولا في قلوبهم.

لم أكن جاسوسا ولكن ظروف وصولي من مقر الشركة في القاهرة إلى المنجم الصحراوي أوحت تمامًا بأني جئت لأكون عينا عليهم، ما دام المدير العام المكروه من كل العاملين في القاهرة وفي المناجم هو الذي أوفدني لأكتب تقريرا عن إنتاجية العمال وعن معوقات العمل. هذا هو نص تكليفه، وترجمته الفعلية كما فهمها العاملون في المنجم هي اقتراح معاقبة العمال الذين لا يرقون لمستوى الإنتاجية المطلوبة وزيادة الأعباء على من يبقى منهم.

كنت كارها لهذه المهمة منذ البداية، واستربت يوم استدعاني رئيس مجلس الإدارة لمقابلته. استقبلني الأستاذ «حمدان» مبتسمًا،

بل ووقف يصافحني بحرارة فزادت هذه الرقة غير المألوفة من مخاوفي، لاسيما عندما بدأ يتكلم: يجب على الشركة أن تكافئني قبل خروجي إلى المعاش. أنا موظف مثالي لا توجد في ملفي أي شائبة طول الثلاثين عامًا. أستحق الترقية بالفعل منذ مدة طويلة لولا أنه للأسف لا توجد درجات خالية. الآن هو يحاول أن يعوضني. سيوفدني للمنجم لمدة شهرين وسأتقاضى مبلغًا لا بأس به كبدل سفر ومكافأة خاصة للعمل في المناطق النائية.

غمغمت: عندي الضغط والمرارة. أراجع طبيبي كل أسبوع تقريبا.

فرد متهللا: عظيم! جو الصحراء الجاف سيفيد صحتك.

لم أعرف أبدا كيف يفيد جفاف الصحراء ضغط الدم والتهاب المرارة، وازدادت المسألة غموضًا عندما شرح لي فلسفته الطبية: فالإنسان مخلوق من التراب، وكلما تفاعل مع الأرض كلما تحسن حاله. وفي الصحراء النظيفة البكر التي يرسلني إليها يكفي أن آخذ بيدي قبضة من التراب أو الرمل وأن أشمها بعمق، وأدلك بها بعد ذلك مواضع الألم في جسمي. يحسن أيضًا أن أنام على الرمل مباشرة كلما أمكن لكي ألتصق بالأرض.

لم أفهم أي شيء من كلامه هذا، ولكني أدركت شيئا واحدا – أنه لا مفر من تنفيذ الأمر.

كرهت زوجتي المهمة مثلما كرهتها ونصحتني: لا داعي للسفر والبهدلة، سوِّ معاشك واترك العمل. لن تزيد الشهور الأربعة حتى بلوغك السن من المعاش ولن تنقص منه. قلت لها صحيح، لكني

أخاف من أفعال الأستاذ «حمدان» حتى ولو كنت في آخر يوم عمل. لا يطيق أن يرفض أحد أوامره ولا يعرف أحد من أين تأتي ضربته، لكنها دائما قاصمة: خصم فادح من المرتب، إحالات متتابعة للتحقيق في مخالفات حقيقية أو وهمية، نقل مفاجئ إلى مكان بعيد عن السكن المستقر وعن مدارس الأولاد. كان اسمه في الشركة مناع الخير المعتدي الأثيم.

وعلى سبيل الاختصار أصبح له اسم تدليل متداول بين العاملين: الأستاذ مناع. فمن أكون أنا لأتحداه؟

لم تقتنع زوجتي. قالت تستطيع أن ترفض. أنت طول عمرك في الإدارة القانونية. ما علاقتك بالتفتيش والإنتاج؟.. مع ذلك لم أرفض.

لكن زملائي في الشركة انتقموا مني بمجرد وصولي إلى الواحة

ذهبت إلى الشركة في الصباح ببذلة صيفية بيضاء كنت فصلتها خصيصًا لجو الصحراء، ورجعت بالبذلة البيضاء في الظهر حمراء.

قال لي عامل الغسيل في الفندق بابتسامة مواسية: عوضك على الله يا أستاذ، هذا صدأ. لا الغسيل ولا أي تنظيف آخر يزيله، عوضك على الله.

فهمت ساعتها سر الابتسامات المختلسة المتبادلة بين الزملاء وهم يصممون على أن أصحبهم فورا للتعرف على المنجم وعلى

«الكسارة» التي تفرز المعدن والممتلئة بغباره الأحمر الذي التصق ببذلتي وقصف عمرها، وفهمت لماذا كنت أنا الوحيد بينهم الذي ارتدى بذلة بيضاء.

مع ذلك أدهشني تصرف زملائي في اليوم التالي لهذه الخسارة. كانوا يقتربون مني فرادى وخلسة ليؤكد لي كل واحد منهم على حدة أنه لم يكن شريكا فيما يصفه بالمؤامرة الرخيصة ضدي وضد بذلتي. يلقي محدثي باللوم على متآمرين غير محددين هم الذين يعطلون العمل في المنجم في حين أنه هو، بالذات، يتصدى لهم من زمن طويل.

وكان الواحد منهم ينهي حديثه معي بالأمل في أن يشيد تقريري النهائي بالمجتهدين المخلصين، مع استعداد محدثي المجتهد المخلص لإبلاغي بأسماء العاملين السيئين الذين يعطلون الإنتاج ليلقوا العقاب الذي يستحقونه.

قلت لنفسي لا عجب إذن إن اعتبروني جاسوسًا ما داموا كلهم جواسيس تحت الطلب.

ولكن كيف أشرح لهم الفرق بين التفتيش والتجسس؟

ألا أتلصص بالفعل على أعمالهم وأتابع تقارير المفتشين الذين أتوا قبلي وكل الأوراق السرية المدفونة في ملفات خدمتهم؟

ليست لي مصلحة طبعًا فيما يصيبهم من ثواب أو عقاب. فهل يمكن إذن أن أقول إنه تجسس شريف أو بريء؟ لا. فأنا أعرف أني سأقدم نتائج التفتيش إلى شخص غير بريء وغير عادل على الإطلاق

ويجد لذة في توقيع العقاب، وأنا مخلب هذا المعتدي الأثيم شئت أم أبيت، فلماذا إذن لم أصر على رفض المهمة؟

لا أغفر لنفسي ولا أغفر لهؤلاء الزملاء المتحفزين للخيانة. تجنبت الاحتكاك بهم واقتصر عملي على فحص الأوراق وتقارير الإنتاج في المنجم.

هكذا فُرضت عليّ العزلة حتى عن نفسي. بعد أيام قليلة في الواحة أحسست كأني منفي في هذه الأرض الجرداء منذ دهور. نسيت صوتي. تمر ساعات لا أكلم أحدًا ولا أفعل شيئا غير فرز ملفات العاملين وكتابة الملاحظات قبل أن أرجع للفندق.

كنت وحدي تقريبا في الصيف والحرّ في ذلك الفندق الشتوي في قلب الصحراء، يأتي بين حين وآخر سياح أجانب عابرون يقضون ليلة أو ليلتين لكن الفندق كان يبدو خاليا ومهجورا. وقال لي العمال بحسرة إنه لا تخلو فيه غرفة في موسم الشتاء.

أما الآن فلم يكن أمامهم سواي يعرفون أني مصري وأني موظف، ولا أمل على الإطلاق في أن أعاملهم معاملة السياح، ومع ذلك كانوا يعنون كثيرا بخدمتي، ربما مراعاة لسني. أكاد أشعر بالخجل عندما أرى جمعهم يحيط بي أثناء الوجبات الثلاث. تحرجني نظراتهم ووقوفهم البعيد المتأهب والمنتظر. أشير بيدي فيتقدم رئيسهم (سعيد)، الذي يرتدي بذلة سوداء، بخطوات متحفزة ويتبعه اثنان على الأقل يلبسان قفطانين أبيضين، حتى لو كان ما أطلبه مجرد كوب من الماء. يبتعد التابعان لدقائق ثم يرجعان وأحدهما يحمل زجاجة ماء مثلجة يعطيها لسعيد بينما يحمل الثاني كوبا فوق صينية

معدنية. يستغرق سعيد وقتا طويلا في فتح الزجاجة مقطبا جبينه كأنما من مشقة الجهد، وبعد أن يفتحها يضع زميله الكوب أمامي ويصب سعيد بحرص قسطا صغيرا من الماء وهو يحدق في عيني فآخذ رشفة وأقول «تمام .. مثلجة!» بعدها يملأ الكوب ويترك الزجاجة على المائدة وينصرف الموكب. كنت أراهم يمارسون هذه الطقوس مع السياح الأجانب، وإنما لمشروبات أخرى غير الماء.

غير أنه لم يكن هناك مفر من أن يحتملني عمال الفندق وبأن أحتملهم. اعتدت أن أقضي معظم نهاري في المطعم المكيف الهواء هربا من الحر ومن الوحدة.

لاحظ سعيد أنني أعاني من الوحدة فاقترح عليّ أن أغير الجو. عرض أن أقوم في عطلة نهاية الأسبوع برحلة في الصحراء لأشاهد معابد فرعونية قديمة ولأرى بحر الرمال البيضاء الذي يقصده السياح الوافدون من أقاصي البلدان.

قال إنها رمال ناعمة ممتدة تشبه بحرا بالفعل وكثبانها البيضاء كأنها أمواج متلاحقة ولو أرهفت السمع لشعرت عند هبوب النسيم بهدير الموج، وعندما أرى ذلك البحر الأبيض فسأرغب في البقاء هناك طول الوقت. أثار سعيد فضولي، لكنه عندما حدثني عن تكلفة الرحلة بالسيارة إلى ذلك البحر الأبيض والمبيت على شاطئه قنعت تماما بالرمال الصفراء الممتدة حولي، وبالمنظر الذي كنت أراه من غرفتي ومن خلف زجاج المطعم: غابة من النخيل في منخفض عميق من الأرض ويلامس سعفها مساكن الواحة المبنية فوق هضبة.

أما متعتي الأخرى فكانت هي اكتشاف القطط، والواقع أن القطط هي التي اكتشفتني.

اعتدت أن أتناول العشاء في حديقة الفندق، عندما يرطب نسيم المساء حرارة الجو. وكانت حديقة جميلة ومنسقة تحف بها أشجار الجازورينا والكافور وتتخللها أحواض زهور نفاذة الشذى. قيل لي إن (المدام) زوجة صاحب الفندق هي التي جلبت هذه الزهور من بلدها وإنها علمت البستاني طريقة ريها وتشذيبها. ومع أنها هي وزوجها الأجنبي شريكان في ملكية الفندق وإدارته، فقد لاحظت أن هيبتها لدى العمال تفوق هيبة زوجها بكثير. كانا يقضيان الصيف بالخارج ولم أر أيا منهما منذ وصلت.

المدام هي أيضًا صاحبة القطط التي تجوس بحرية في الحديقة بالليل والنهار. كانت سبع قطط مختلفة الألوان ساحرة الأعين مثل كل القطط، نظيفة جدًّا ورشيقة الحركة. ما إن أجلس في الحديقة حتى تحيط بي من كل الاتجاهات. تتطلع نحوي في صمت منتظرة أن ألقي لها بشيء من الطعام. ما أدهشني منذ البداية هو هدوءها وانضباطها الصارم. لم تكن مثل القطط التي تخمش الثياب لتلفت الانتباه، أو التي تزوم و«تنونو» تحت قدمي لألقي لها بشيء. كانت فقط تحيط بي في دائرة وتنتظر وإذا ألقيت لواحدة منها شيئًا من الطعام لم تهجم عليها الأخريات، بل تظل شاخصة نحوي في صمت وابتهال. كانت قطتي المفضلة «مشمشية» اللون، صفراء العينين، مع كل أطياف اللون الأخرى التي تموج في حدقات القطط، وهي التي تتقدم حين أشير إليها. الأخريات كن أيضًا جميلات يغلب عليهن اللون الرمادي

المرقط بالبياض وشعورهن غزيرة كالفراء. اعتدت أن أمس ظهورهن وأغوص بيدي في شعرهن الناعم. أما قطتي المفضلة فكان يحق لها عند الإشارة أن تقفز إلى ركبتي وأن تستكين في رضا لمداعبتي لها. وكان هناك قط ذكر أضخم حجما يقف على مبعدة ويتمطى فاردًا سيقانه على امتدادها وهو يرمقني بنظرة جانبية غير مبالية، لكنه يسرع بالانقضاض على ما ألقيه له حين يحين دوره.

توثقت علاقتي الودية بهذه القطط الأليفة والوديعة، ولكن ذات مساء أثناء العشاء والقطط تحوم حولي جاء سعيد وراح يطاردها بقسوة ويركلها بقدمه لكي تبتعد عني. قلت له أن يتركها في حالها لأنني أحب صحبتها وهي لا تضايقني ولا تؤذيني.

كان مزاجه سيئًا فرمقني بنظرة تكاد تكون مؤنبة وهو يقول: لماذا تحبها؟ أنا أكره القطط.

ـ ولماذا تكرهها أنت؟

ـ لأنها تقتل الدجاج في البيت.

سألته في دهشة: القطط تقتل الدجاج؟! هل أنت متأكد أنها ليست «العرسة» أو ربما ثعلب من ثعالب هذه الصحراء؟

ـ رأيت القطط بعيني! أنتظرها في الليل وحين تقترب من «عشة» الدجاج في بيتي أضربها بالبندقية (الرش) فتهرب.

أردت أن أنهي الحديث معه فقلت وأنا أراقب القطط البعيدة:

ـ ما دمت متأكدًا.

تجمعت القطط تحت إحدى الأشجار القريبة وهي تنظر نحونا

وتتحرك في قلق مستعدة للهرب في أي لحظة لو عاود سعيد مهاجمتها. وكان واضحا أنها تبادله النفور.

لكنه بدلا من أن ينصرف ضحك فجأة بصوت عال وقال:

ـ تعرف يا أستاذ، لو رأتني (المدام) وأنا أضرب هذه القطط لقطعت رقبتي!

حاولت استمالة قلبه نحو القطط فقلت: المدام معها حق يا سعيد، هناك حديث شريف ...

فقاطعني: عن المرأة التي حبستها؟ من تحسبني يا أستاذ. لست جاهلا. أنا ليسانس آداب فلسفة. ولا تسألني عما رماني على هذا العمل.

لم أسأله، فضحك مرة أخرى وأكمل كلامه: نحن لا نحبس القطط هنا يا أستاذ. هي كما ترى حرة طليقة تتنزه وتأكل وتشرب حتى صارت كالبغال.

ولم يكن هذا صحيحًا فقد كانت القطط رشيقة فعلا وبدت لي قنوعة في مأكلها. لكني لم أعلق أيضًا، أما هو فأكمل:

ـ نحن المحبوسون هنا يا أستاذ! المدام تحبسنا حتى وهي غائبة عنا. هل تصدق؟ هي الآن خارج البلد ولكنها تعرف كل شيء يحدث هنا. تعرف ما يعمله كل واحد منا من أول ورديته حتى آخرها . عندما ترجع ستقول لي يا سعيد أين ذهبت يوم الثلاثاء الفلاني الساعة كذا وتركت ورديتك؟ ثم تخصم من مرتبي نصف يوم.

ـ بالتأكيد هناك من يبلغها الأخبار، بالتأكيد بينكم جاسوس أو جواسيس.

هز رأسه بغير اقتناع وقال: ربما!

ضحكت أنا وقلت: بالتأكيد يا سعيد بالتأكيد، وليس ربما! مؤكد هناك بينكم جواسيس ينقلون أخباركم للمدام. هي لا يمكن أن تكون ساحرة تعلم الغيب.

قال بشيء من المرارة: والله يا أستاذ أعمالها أمر من السحر. اليوم وأنا أقبض مرتب الشهر وجدت مخصوما مني أسبوعًا كاملًا بالظلم، وكل واحد من العمال كان عنده خصم ظالم مثلي.

ـ ولماذا تسكتون على الظلم يا سعيد؟ لماذا لا ترفضون الـ ..

سكتُّ في منتصف الجملة. انتبهت إلى شيء. لكن سعيد لم يرد على سؤالي على أية حال.

أكمل بلهجته المتشكية: وما هو المرتب على أي حال؟ لولا القروش التي يدفعها الزبائن وقروش ومكسب الرحلات لوقع هذا الشغل عليَّ بالخسارة . يا عيني على المرتب!... ما تصرفه المدام على القطط في شهر واحد لدى الطبيب هو ضعف مرتبي. هل تصدق أنها تذهب بها إلى طبيب في المدينة مرة كل شهر على الأقل؟

ـ وما الغرابة في ذلك يا سعيد؟ أعرف أنهم يحقنون القطط لحمايتها من الأمراض.

ـ نعم، وهي تجري لها عمليات أيضًا لكي لا تلد.

ـ للذكور أو للإناث؟

ـ كله! للذكور وللإناث

عاد ينظر إلى القطط بنوع من التشفي وقال:

ـ كلها قطط مضروبة!

ـ ماذا قلت؟ كلها قطط ... ماذا بالضبط؟

ـ قلت إنها قطط مضروبة. ألا تصدقني؟

أفلتت مني ضحكة عالية وأنا أقول:

ـ في الواقع يا أستاذ سعيد، كلنا قطط مضروبة!

ـ كيف؟

ـ فكر بنفسك! أنت خريج فلسفة، أليس كذلك؟

ـ أنا لم أنس الفلسفة وحدها يا أستاذ في هذا المكان، بل نسيت القراءة والكتابة!

التفت نحو القطط وأنا أتساءل: هل هذه العمليات هي سبب هدوئها الغريب أم أنها تحقنها بشيء آخر أفقد هذه القطط قططيتها؟ ونحن؟

أشرت إلى القطط المتجمعة تحت الشجرة القريبة كي تقترب لكني انتبهت إلى سعيد يخاطبني بلهجة مختلفة تمامًا عن حديث القطط. كان يسألني بتهذيب شديد:

ـ سعادتك تأمر بشيء آخر؟

قلت وأنا أواصل الإشارة للقطط. أنا لم أطلب شيئا من الأصل يا سعيد حتى أطلب شيئا آخر. ولكن ما رأيك أن نرفض؟

ـ نرفض ماذا بالضبط سيادتك؟

لا شيء يا سعيد. يمكنكِ أن تنصرف. شكرًا.

عندما رأته القطط ينصرف بدأت تتقدم نحوي في بطء، وهمست لها وأنا أمد يدي نحوها: تعالوا يا إخوتي وأخواتي!

فأتوا طائعين.


الجارة

(١)

نلتقي أحيانًا عند باب المصعد في الصباح.
أهزّ رأسي وأقول بأدب «مدام».

تهز رأسها وترد بأدب «مسيو».

عندما تكون زوجتي معي نحيي السيدة سويًا بهز رأسينا و«مدام».



ترد علينا بالهزة نفسها وبتعبير لغوي مختصر «مسيو ـ دام».

وحين يصل المصعد للطابق الأرضي نشير لها باحترام أن تتقدمنا قائلين «من فضلك».

تخرج مسرعة وهي تتمتم «شكرا».

في بعض الأحيان تكون الأمزجة رائقة أكثر من المعتاد فنتبادل

بالإضافة إلى ما سبق عبارات تحية الصباح. ولاحظت أن ذلك عادة ما يحدث في الأيام المشمسة.

هناك أيضًا ظروف استثنائية يطول فيها الحوار قليلا. فإذا تصادف مثلًا أن تقابلنا في أيام رأس السنة نقول «عام سعيد يا مدام».

فترد بالتفصيل: وعام سعيد لك يا مدام وأنت أيضًا يا مسيو.

ويكون الحوار عندئذ مصحوبًا بابتسامات عريضة متبادلة وبتكرار العبارات نفسها أو ما يشبهها أكثر من مرة.

لكننا لم نزد عن ذلك سنة وراء سنة. لا مع هذه السيدة ولا مع غيرها من السكان.

في البدء اعتقدت أنني وزوجتي مقصودان بهذه المعاملة الفاترة. أنا بالطبع باعتباري عربيا مقتحما لهذه المدينة الفرنسية الصغيرة المحافظة وروزالين ـ ابنة المدينة ـ لارتكابها خيانة وطنية بزواجها مني. وعزوت إلى هذا الجو العدائي رحيل ولدينا سمير وشادي عن المنزل بمجرد انتهائهما من الدراسة.

لكني كنت مخطئا في تقديري، على الأقل بالنسبة للعمارة التي نسكنها، إذ اكتشفت مع مرور الوقت أن أكثر الكلمات والعبارات استعمالا بين السكان الفرنسيين أنفسهم أمام المصعد وداخله وفي الممرات وعلى السلم هي مدام ومسيو وصباح الخير ومن فضلك وشكرا وفيما بين هذه الكلمات المتناثرة الصمت وهز الرءوس وأحيانًا الابتسام.

وجدت هذا غريبا حين اكتشفته ثم تعودت عليه.

وكنا نرى هذه الجارة أكثر من غيرها لأن شقتها تلاصق شقتنا في الطابق الثالث. في عينيها برغم سنها (الذي قدرت أنه يقارب الثمانين) نظرة مرحة تكاد تكون نظرة شقاوة طفولية. هي قصيرة وممتلئة وشديدة العناية بنفسها، شعرها الكستنائي المصبوغ مصفف جيدًا ومقصوص حتى منتصف رقبتها. تضع زينة خفيفة ووقورة على وجهها، لكن التجاعيد المترهلة في رقبتها تكشف سنها الحقيقي. قرأت اسمها أكثر من مرة على صندوق البريد المجاور لصندوقي وكنت أنساه دائمًا لغرابته: السيدة سوروندون ـ بويل. علقت زوجتي عليه ذات مرة بقولها: هذا بالتأكيد اسم عائلة زوجها الراحل. ليس اسمًا فرنسيًا. لابد أنه كان من المهاجرين الأجانب. لم يعجبني شيء في لهجتها فقلت في جفاء أنا أيضًا من المهاجرين الأجانب واسمي عويس وهو ليس فرنسيا. قالت روزالين حقًا؟ يا لها من مفاجأة! ثم أكملت لِمَ هذه العصبية التي أصابتك مؤخرًا؟ أنا لم أكن أقصد شيئًا بالطبع.

المرة الأولي التي طرقت فيها السيدة سوروندون ـ بويل بابنا كانت قبل أقل من سنة. لم أكن موجودًا في البيت تلك الليلة لكن زوجتي حكت لي في دهشة أن جارتنا زارتها وبقيت معها لمدة ساعة. اعتذرت لمجيئها دون موعد لكنها لا تستطيع أن تتنفس وتشعر أنها مريضة جدًا. سألتها روزالين إن كانت تريد أن تطلب لها طبيبًا أو أن تذهب معها إلى طبيب.

لا. ستكون بخير بعد قليل. وستكون شاكرة فقط لو فتحت روزالين النافذة وسمحت لها بالجلوس لفترة إلى أن تمر الأزمة.

قالت زوجتي إنها فتحت النافذة وارتدت (روبًا) منزليًا ثقيلًا

لتتحمل البرد، وأعدت للجارة شرابا ساخنا من الأعشاب التي تؤمن أنها تعالج كل الأمراضِ وتثق بها أكثر من العقاقير الطبية رغم أنها تعمل سكرتيرة في عيادة طبيب مشهور في المدينة. تبادلت الحديث مع جارتنا فترة إلى أن تحسنت حالتها وانصرفت وهي تكرر الاعتذار.

قالت روزالين أظن أن حالتها لم تكن خطيرة بالفعل، لكنها كانت خائفة من أن يحدث شيء وهي وحيدة في الليل. المرأة المسكينة!

ومع العبارة الأخيرة انسابت دموعها. تبكي روزالين لأقل سبب وفي بعض الأحيان دون سبب ظاهر. كنت في البدء أسألها حين أري الدموع تنساب على خديها دون مقدمات ما الذي جرى؟ فتقول إنها تذكرت شيئًا.

منذ زمن بعيد لم أعد ألح على معرفة الخواطر التي تنتهي بزوجتي إلى البكاء، تتهمني باللامبالاة والجمود حين لا أشاركها انفعالها للأشياء التي تبكيها: رؤية عصفور مكسور الجناح في الحديقة يتخبط في الأرض عاجزًا عن التحليق.. عجوز تقف على محطة الأتوبيس ترتجف وجسدها مزرق من البرد وهي تنفخ في يدها بحثا عن الدفء. ضرير يعبر الطريق وحيدا معتمدا على عصاه البيضاء.. إلخ. أكرر على مسمع روزالين في كل مرة أن عملي كمراجع حسابات يحتاج تركيزا ولا يسمح لي بأن أترك نفسي للعواطف.

تنظر لي بإشفاق بعينيها المبتلتين وتقول «مع الأسف».

ما علينا. المهم أني التقيت بجارتنا بعد ذلك في المنزل.

تكررت زياراتها الليلية لنا بمعدل مرة أو مرتين في الأسبوع. تطلب دائمًا فتح النافذة في عز البرد وتبقي معنا قليلا لتثرثر. لكن زيارتها لم تعد تدفع زوجتي إلى البكاء. على العكس. في أكثر الأحيان كانت حكاياتها مسلية وطريفة. روت لنا مرة في بداية زياراتها أن لصا هاجمها في الطريق. حاول أن يخطف حقيبة يدها على اعتبار أن العجوز فريسة سهلة، لكنها تشبثت بإحدى يديها بالحقيبة وسددت باليد الأخرى طرف مظلتها المعدني المدبب بين فخدى المهاجم. شبت بجذعها قليلا ومدت ذراعها نحونا وهي تجلس قبالتنا لترينا كيف استخدمت سلاحها ثم انحنت ممسكة ببطنها وراحت تتلوى وهي تصف حال اللص التعيس حين جرى هاربا وهو يصرخ. وسعدت الجارة حين انتهت من تمثيليتها القصيرة، لأننا جمهورها الصغير، كنا نضحك معها من قلوبنا.

كانت موهوبة بالفعل في التمثيل.

اعتدنا على زياراتها المتواترة وعلى حكاياتها الفكهة. غير أنها أحيانا كانت تتوقف عن الكلام وتثبِّت نظرتها على وجهي قائلة بنبرة تأمل وأسف كما لو كانت تحدث نفسها: «لا يعرف الإنسان الحقيقة إلا متأخرًا» فأفهم على الفور، ودون أن أعلق أنها تشير إلى علاقتها الجديدة بنا وإلى اكتشافها المتأخر أن (الأجانب) ليسوا مزعجين تمامًا، بل وأنهم يمكن أن يكونوا جيرانًا طيبين. ففي كل مرة كانت تبقى فترة أطول من سابقتها. وكانت زوجتي تغلق نافذة الصالون بمجرد خروج الجارة ثم تنظر في ساعتها وتقول بلهجة متشكية: عندنا عمل في الصباح المبكر فمتىَ سننام؟

ومع ذلك؛ فإننا لم نصد السيدة في أي ليلة طرقت فيها بابنا.

وبالتدريج بدأ تبادل الحديث الحميم عن الأسر. حكت لنا بشيء من الفخر عن ابنها (جاك) المهندس المعماري المشهور الذي يسكن (فيلا) مثل القصر في إحدى الضواحي الراقية في المدينة. أما ابنته - حفيدة السيدة - فهي تدرس في أمريكا. وفهمنا أن علاقتها ليست على ما يرام مع زوجة ابنها إذ كانت نادرًا ما تذكرها. وكان هذا مفتاح تقاربها مع روزالين التي كان النفور متبادلا بينها وبين زوجة ابننا الأكبر (سمير) من أيام الخطوبة.

حكت لجارتنا بأسى أن (جانيت) عندما تزوجت من سمير قالت لروزالين صراحة ومباشرة، بل بشيء من الغل سمير الآن ملكي وسترين! وبالفعل فقد رأت روزالين ورأيت أنا معها. أقنعت ولدنا بعد شهور من الزواج بقبول العمل في مدينة بعيدة بحجة أن المستقبل هناك أفضل منه في مدينتنا. ولم يعد سمير يزورنا إلا في فترات العطلات الطويلة المتباعدة، مصطحبا الحفيدة التي تبكي حين ترانا وتتشبث بأبيها أو أمها.

لكن جارتنا لم تسايرنا في انتقاد سمير. قالت بهدوء: معروف أنه عندما ينبت ريش الفرخ الصغير ويحلق فإنه يترك عش أبويه ويبني لنفسه عشه. ألا نرى نحن بأنفسنا أن ابنها الذي يسكن في ضاحية من المدينة نفسها نادرا ما يزورها؟ هي تفهم أن هذه هي سنة الحياة. لا يدهشها ذلك ولا يغضبها وهي بصراحة ترى أن مسألة الأمومة والبنوة يجب ألا تكون سجنا للأمهات ولا للأبناء. الحياة هي مرة ويجب ألا نضيع الوقت. يجب أن نستمتع فيها بكل لحظة. والأمومة هي بالطبع

متعة لكن بشرط أن تكون عاطفة من اتجاهين، وإلا فليستمتع كل منا بالحياة على طريقته لأن...

أفزعني هذا الكلام وأفزع روزالين التي قاطعت الجارة بحسم: لا. الأمومة شيء مقدس والمسألة باختصار أن سمير ابن عاق. فها هو أخوه شادي الذي يسكن بعيدا ويعمل في وظيفة مرهقة يزورنا في الأسبوع الواحد مرتين أو ثلاث مرات.

قالت الجارة بحماس: ولكن هذا عظيم! إذن ركزي على شادي وانسي سمير! شادي يكفي ليشبع أمومتك. هل هو متزوج أيضًا؟

ردت روزالين: لا.

فقالت الجارة: إذن أتمنى أن يستمر على حاله حتى بعد الزواج.

كانت ملاحظة بريئة تماما في رأيي. لكن روزالين امتقع وجهها لما قالته الجارة. لم تكن تقبل أي نقد أو شبهة نقد لشادي ابنها المدلل منذ الطفولة.

حل صمت دعا الجارة إلى الاستغراق في ذكرياتها عن المرحوم زوجها، إذ غمغمت كالعادة «فيليب!» ثم انغمست في شرود طويل. اعتادت أن تنهي حديثها عنه في كل مرة بعبارة «قتلوه!» ولم نستفسر نحن عن معنى ذلك حين سمعناه أول مرة. ربما نكون قد خشينا من زيادة أحزان السيدة حين تروي القصة، أو ربما في الأغلب أننا كنا مرهقين تماما ونتلهف على أن ننام. غير أن الجارة حكت لنا بعد ذلك قصة الميتة الغريبة لزوجها فيليب، الذي كان يعمل

في بلده القديم قبيل مجيئه إلى فرنسا في مصنع للأدوية واستنشق برغمه أثناء عمله كميات هائلة من مساحيق الأدوية، لاسيما مساحيق المضادات الحيوية. لهذا عندما أصابه الالتهاب الرئوي الذي قضى عليه لم تنفع في علاجه أقوى الجرعات من هذه المضادات التي تشبع جسده بها.

عندما انتهت السيدة من قصتها قلت في دهشة هذه بالفعل جريمة قتل.. كاملة الأركان.

وقالت روزالين بصوت متهدج: بالضبط يجب محاكمة القتلة.

سألت السيدة: وكيف نصل إليهم؟

فتركت روزالين لدموعها العنان.

خاطبت الجارة روزالين بنوع من الإشفاق.

لا تبكي يا سيدتي. أنا لا أبكي حين أذكر زوجي. هو علمني ألا أذكره بالحزن بل بالفرح.

(٢)

كنا عائدين من العمل في المساء فوجدنا (ليديا) البوابة منهمكة في تنظيف المدخل والسلم.

دهشنا لأنها عادة ما تقوم بالتنظيف في الصباح، لكنها شرحت لنا أن أقداما كثيرة داست المدخل والسلالم عصر اليوم.

لماذا؟

قالت ليديا إن السيدة سوروندون ـ بويل سقطت في الحمام فكسرت رجلها ولم تستطع الحركة. ظلت تصرخ طالبة النجدة، فاستدعت ليديا الشرطة والإسعاف لاقتحام الشقة، غير أن الباب كان مغلقا من الداخل بالمفتاح والمزلاج فاستحال فتحه. جاءت المطافئ بسلمها المتحرك ودخلوا شقة السيدة من النافذة، وهكذا تمكن الإسعاف من نقلها إلى المستشفى.

سألت روزالين البوابة إن كانت قد اتصلت أولا بابن السيدة قبل استدعاء الشرطة. ابتسمت ليديا وانهمكت في كنس المدخل. سألتها زوجتي بإلحاح إن كان معها رقم تليفون الابن المدعو (جاك) فردت بالإيجاب وأكملت بقولها معي نسخ من مفاتيح جميع السكان تحسبا لمثل هذه الطوارئ ما عدا مفتاح السيدة سوروندون ـ بويل. هي حريصة جدًّا وعنيدة جدًّا.

وكانت بالفعل عنيدة جدًّا، فبعد يومين أو ثلاثة أيام من الحادثة وجدناها في مدخل العمارة تمشي على عكازين وهي تؤرجح رجلها الموضوعة في الجبس.

قالت لنا بلهجة ظافرة وهي تبتسم: أراد هؤلاء الأغبياء حجزي في المستشفى لإجراء تحاليل وصور أشعة أخرى. أي تحاليل وأي صور؟ هي رجل مكسورة لا أكثر! وقعت على ورقة تعفيهم من المسئولية إذا ما حدثت مضاعفات أو إذا ما مت ثم خرجت باختياري!

قلت بإعجاب: أحيي شجاعتك يا مدام!

لكن روزالين لكزتني خفية وهي تهمس في أذني: لا تشجعها على هذه التصرفات!

وبينما نصعد إلى الشقة قلت لروزالين بإصرار: أنا أحترم بالفعل هذه السيدة وحبها للحياة. أحترم استقلالها وهي في هذه السن. لماذا تقبل سجن المستشفى إن كانت تستطيع أن تعيش حرة؟

ردت روزالين بلهجة حاسمة: عندما يكون الإنسان بحاجة إلى المساعدة فيجب أن يقبل المساعدة.

ـ عن نفسي، إن كان ثمن المساعدة هو حريتي فلا أريد أن يساعدني أحد. لا أريد وصاية من أحد.

ـ أنت أصبحت تحيرني. لم أعد أفهمك.

لكن في الأيام والأسابيع التالية لم تكن جارتنا بحاجة إلى أي مساعدة. اعتدت أن أراها في الصباح تجلس على مقهى قريب من البيت فألوح لها بيدي وتشير هي بإلحاح لكي انضم إليها فأكتفي بالإشارة إلى الساعة في معصمي وأنا أبتسم ثم أواصل طريقي بسرعة.

ورأيتها أيضًا عدة مرات في محل (الكوافير) الموجود على ناصية شارعنا. ثم قابلتها كثيرا بعد نزع الجبس عن ساقها وهي تحمل حقائب عديدة وثقيلة أثناء عودتها من مشاوير التسوق. أعرض أن أساعدها في حملها فترفض بإصرار.

وفي تلك الأيام من الانطلاق والخروج المستمر من البيت أصبح صوتها أعلى حين تخاطبني أثناء لقاءاتنا العابرة. وصارت تقترب مني كثيرا حين أكلمها موجهة أذنها ناحية فمي. لكنني كنت سعيدا لرؤيتها تعيش بمثل هذه الحيوية وبابتسامتها الدائمة متحاملة على نفسها حتى لا تبقى قعيدة في البيت.

وفي إحدى مرات لقائنا أمام البيت لوحت بحقائب التسوق الثقيلة كأنها تؤرجحها وقالت بصوت عال وبمرح يكاد يكون طفوليا:

ـ اليوم لن تستطيع الهرب! تعال أدعوك على فنجان من القهوة، ليس هذا موعد عمل.

توجهنا إلى المقهى القريب، ورفضت كالعادة أن أساعدها في حمل الحقائب قائلة: ها أنت ترى أني قوية كالحصان! لكن زوجة ابني لا تكف عن الإلحاح عليه لكي يضعني في بيت للمسنين!

أخيرا إذن عرفت مشكلتها مع ابنها وزوجته!

سألتها، لكي أتأكد بعد أن وجدنا مكانا في المقهى المزدحم بأزواج من العشاق إن كان رفضها الذهاب إلى بيت المسنين هو سبب المشاكل، فهزت رأسها بالإيجاب.

ـ ولكن لماذا تريد زوجة ابنك أن تذهبي إلى هناك؟

ـ هذا ما يحيرني يا صديقي! هل تريد أن ترثني في حياتي؟ هي تعلم أني لا أملك شيئا غير الأثاث القديم في هذه الشقة الصغيرة ومعاش زوجي الصغير التي تنفق هي ما يساويه في يوم واحد. هل تريد أن تستأثر بجاك لنفسها؟ لكني لا أنافسها عليه. نادرا ما أراه ولا يغضبني هذا مثلما تغضب زوجتك لغياب ولدكما.

قالت للنادل الشاب وهو يضع القهوة أمامنا:

ـ ما رأيك يا لوي في خطيبي المصري الجديد؟ سيأخذني معه إلى بلده التي لا تغيب فيها الشمس.

رد (لوي) ضاحكا: وتهجرينني؟ تعرفين أني أغار!

ضحكت بدوري: وأنا أيضًا أغار. لا حل إلا المبارزة!

انصرف عنا وهو يكمل بابتسامة: وأنا أوافق.

وضعت الجارة يدها على قلبها وقالت بلهجتها التمثيلية: إلا الدماء! لا أحب الدماء!

وبينما نرشف قهوتنا قلت للجارة: كلامك عن زوجة ابنك زاد من حيرتي. إن كانت لن تكسب شيئا من ذهابك إلى بيت المسنين فلماذا تصر على ذلك وتفسد علاقتك بابنك؟

ـ قلت لك لا أدري. هي أقنعته أن هذا في مصلحتي لكني لاحظت أن بعض الناس يضايقهم جدًّا أن تكون عجوزا وحرا وألا تحتاج إليهم. ربما يزعجهم أنك تستمتع بحياتك لأنهم هم لم يعرفوا أبدا كيف يستمتعون بحياتهم. ألم أقل لك إني تعلمت درسي من فيليب؟ ظل حتى مرضه الأخير حريصا على أن نستمتع بكل لحظة من عمرنا. أذكر مرة وهو في مرض الموت أنه طلب مني (ألبومات) الصور وراح يستعرض صورنا معا، صور العطلات على شواطئ البحار ووسط الغابات وفي منتجعات الجبال، وصورنا مع جاك الصغير في مراحل عمره منذ الطفولة، مرة وهو يحمله فوق كتفيه وصورته ونحن نساعده معا على أن يتوازن فوق أول دراجة اشتريناها له وصورته ونحن نحضر حفل تخرجه في الجامعة ونحتضنه بيننا، وكان فيليب يضحك بدهشة ونحن نشاهد هذه الصور كأنه يعيش تلك اللحظات بكل مشاعرها من جديد. وقال لي وهو يقبض على يدي الموت لن يهزمني يا ايفيت لأني عشت معك بالفعل ألف عام. فعيشي أنت أيضًا ألف عام.

ارتجفت يدها قليلا وهي ترفع فنجان القهوة وتندت عيناها لكن ابتسامتها لم تغب وهي تكمل كلامها: لماذا إذن لا أصدق فيليب الذي عاش الفرح والحرية حتى آخر أيامه رغم آلام المرض؟ لماذا لا أصدقه هو وأصدق زوجة ابني التي رغم كل ما لديها ولدى زوجها من مال تخرج من علاج نوبة اكتئاب لتدخل في نوبة أخرى؟ أنا لا أكرهها صدقني. لا أريد منها أي شيء سوى أن تتركني هي وجاك في حالي.

قلت: أما أنا بكل صراحة فلا أحب طائفة زوجات الأبناء!

ضحكت جارتي من جديد وقالت: إذن فلنكوِّن جمعية معا!

ثم استدركت: ولكن صدقني، هن لا يستأهلن! لماذا نضيع وقتنا؟

* * *

لكن برغم ذلك كله فقد اتضح أن مخاوف زوجتي لها ما يبررها.

فذات ليلة بعد تلك الأسابيع من انطلاق جارتنا الحر فوجئنا أثناء نومنا بجرس البيت يرن لفترة طويلة دون انقطاع ثم سكت فجأة بينما كنت أجري نحو الباب، وعندما فتحته وجدت جارتي متكومة أمام الشقة دون حركة. انحنيت فوقها مذعورا فوجدتها فاقدة الوعي لكنها تتنفس. أردت أن أحملها إلى داخل البيت ولكن عندما وضعت يدي تحت إبطيها أمسكت روزالين الواقفة خلفي بكتفي قائلة بهدوء: لا تلمسها. هذه مسئولية. ثم سألتني وصوتها بين النعاس والرعب: هل تتنفس؟

عندما قلت نعم تركتني وجرت على السلم وهي تكرر لا تلمسها. يمكن لأي حركة أن تؤذيها.

أدركت أن روزالين ذاهبة إلى شقة البوابة في الطابق الأول وظللت أنا واقفا وقد شُل تفكيري، أطل بعقل مخدر على السيدة الممددة على الأرض. أنحني فوقها بين الحين والآخر، أطمئن إلى أنها تتنفس دون أن أدري ما الذي يمكن أن أفعله غير ذلك.. لكن بينما كنت أنحني مقتربا من وجهها المزرق أخذت أهمس: لا! لا تخذليني يا جارتي الشُجاعة! أنا ألتمس من شجاعتك الأمل الذي ضاع مع عمر انقضى دون معنى ولا فرح فلا تتركيني وحيدا! هيا! عيشي ألف عام كما وعدت زوجك!

وكنت أسمع لغطا بين زوجتي والبوابة لا أستطيع تمييزه، ثم رأيت روزالين تصعد السلم مهرولة ولاهثة وبيدها ورقة صغيرة وسألتني بسرعة وهي تتجاوز السيدة التي تسد مدخل البيت والمصعد: ما زالت تتنفس؟ وقبل أن تنتظر إجابتي كانت ترفع سماعة التليفون المواجه للباب وهي تنقل الرقم ثم تكلمت وأثر اللهاث في صوتها:

ـ نعم يا مدام. أنا جارة حماتك السيدة سوروندون ـ بويل. بالطبع يمكن أن أتكلم مع زوجك.. هذا أفضل.. نعم يا سيدي، آسفة جدًّا أن أطلبكم في هذا الوقت المتأخر، لكن يؤسفني أن أبلغك أن والدتك مغمى عليها أمام باب شقتنا.. نعم، نعم هي جارتي وأعرف أنها عنيدة جدًّا ليس هذا وقته (ارتفع صوت روزالين قليلا) لا أريد الآن أن أعرف إن كنت عرضت عليها الذهاب إلى بيت المسنين أم لا. لا يهمني الآن أنهم يمكن أن يعتنوا بها هناك عناية أفضل. ليس هذا

وقته قلت لك. المسألة الآن يا سيدي باختصار هي أن أمك ملقاة على الأرض أمامي. أقصد أنها في غيبوبة بالفعل. زوجي يقول إنها بالكاد تتنفس. يمكن أن يؤكد لك أن حالتها خطيرة.

مدت روزالين يدها نحوي كما لو أنها تستشهد بي أمام الابن الذي لا يرانا فاقتربت منها ومددت يدي بدوري لأخذ سماعة التليفون، لكن روزالين كانت تصرخ الآن وقد احتقن وجهها:

ـ ماذا تقصد أن نطلب لها الإسعاف؟ هي أمك أنت وليست أمنا نحن! لماذا لا تأتي أنت وتطلب..

كان وجهي قرب وجه روزالين الممتقع التي نظرت نحوي بعينين واسعتين وهي تقول في ذهول:

ـ تصور! أغلق الخط في وجهي! ابن الـ..

أخذت السماعة ورحت أطلب الرقم من الورقة التي كانت روزالين تمسك بها. كنت أرتجف من الانفعال والغضب فظللت أخطئ في ترتيب الأرقام وأعيد المحاولة مرة بعد أخرى لكني طلبت الرقم الصحيح في النهاية.

استمر جرس الهاتف يرن لفترة طويلة دون رد، فهتفت بدوري:

ـ ابن الحرام!

لم أنتبه أثناء ذلك إلى صعود ليديا البوابة التي رأيتها أمام الباب وهي تقول مخاطبة زوجتي:

ـ ماذا قلت لك يا سيدتي؟ طلبته كثيرا في حالات سابقة. لا فائدة.

قالت روزالين وما زالت في ذهولها:

ـ ولكنها.. ولكنها أمه!

تقدمت ليديا مني وانتزعت سماعة التليفون التي كنت أقبض عليها بيد متشنجة وقالت:

ـ سأطلب أنا الإسعاف.

دخلت إلى الشقة فارتديت معطفا فوق منامتي وجئت بغطاء سرير ثقيل غطيت به جسد الجارة المسجى، ثم جلسنا في المدخل على ثلاثة مقاعد قبالة السيدة. وكنت أرى أبواب بعض الجيران في الطابق الذي نسكنه تفتح بحذر وتطل منها بعض الوجوه ثم يعاد إغلاقها على الفور.

قالت ليديا بابتسامة واهنة وهي تنظر للسيدة:

ـ أنا متأكدة مع ذلك أنها قد وجدت وقتًا لتغلق شقتها بالمفتاح ولتخبئ المفتاح في جيب سري قبل أن يغمى عليها.

لم تكن روزالين تصغي. كانت مستغرقة تمامًا في النظر بإمعان إلى السيدة ثم انفجرت دموعها فجأة وهي تسألني:

ـ هل سيفعل بنا شادي هذا عندما نشيخ؟

هل هذا هو ما سيحدث لنا؟

لماذا لا ترد؟

تذكرت حديث الجارة عن الأمومة والبنوة، فكرت أيضًا أنه سيكون عدلا أن يتركني شادي لمصيري وحيدا. ألم أترك أنا أمي في

شيخوختها وجئت إلى هذا البلد فماتت وأنا بعيد عنها؟ من العدل أن أعاقب كأب على ما فعلته كابن.

قلت وأنا أمعن النظر بدوري إلى جارتي التي تحول تنفسها لشخير مسموع:

ـ ألا يحسن أن ننقلها إلى سرير إلى أن يأتي الإسعاف؟

كررت ليديا ما سمعته من زوجتي: لا.. هذه مسئولية.

قلت: أظن أن منع الحركة ضروري في حالة الحوادث فقط، ومشكلتها الآن ليست الكسور أو الجروح.

قالت البوابة بلهجة تحذير: من يدري؟

وهتفت زوجتي مرة أخرى بصوت باكٍ: لماذا لا ترد؟

قلت وقد غلبني الإجهاد: ليس عندي ضمان يا روزالين بأننا سنشيخ ولا ضمان بما سيفعله شادي لو عشنا حتى نشيخ. مشكلتنا الآن هي حالة جارتنا فلنركز عليها.

منعت نفسي من أن أقول لروزالين: أنت تبكين للخواطر التي تعبر فكرك وللطيور الكسيرة الجناح والأغراب البؤساء. أمامك الآن جارتنا. هي لحم ودم وليست ذكرى أو خاطرة.

استمر نشيج روزالين الخافت يتداخل مع صوت تنفس الجارة المتحشرج. وظللنا ثلاثتنا جالسين في مدخل البيت. ننظر بعيون مسبلة عبر الباب المفتوح إلى جارتنا المكومة على الأرض.

كنا ننتظر في صمت عربة الإسعاف، وظهور الابن العاق، ومعجزة رجوع الزمن إلى الوراء حتى لا يحدث ما حدث، ونهوض السيدة من الأرض وهي تبتسم وتسألنا الرأي في تمثيليتها الجديدة هذه.

(٣)

زرنا جارتنا مرة واحدة في المستشفى بعد أن خرجت من العناية المركزة.

بدت عليها شيخوخة متقدمة وهي ترقد بثوب المستشفى الأبيض على سرير تفصله ستائر من مشمع أخضر كثيف عن الأسرَّة الأخرى في العنبر الكبير المتواضع. كان فمها مفتوحا وقد غاب طاقم أسنانها الصناعية، فانسحب خداها في تجويفين يبرزان كل تجاعيد الوجه، وأطلت من عينيها نظرة متعبة، وهي تتأملنا صامتة لفترة طويلة، لكن عندما تعرفت علينا أخيرا، ابتسمت ابتسامة عريضة ورفعت يدها تلوح لنا.

لم يكن هناك غير مقعد واحد في المستطيل الصغير المخصص لها والمعزول بستائر المشمع. جلست روزالين على المقعد إلى جوار السيدة وأمسكت بيدها وهي تغمغم بعبارات مشجعة. واقتربت أنا بدوري منها وانحنيت فوق سريرها وقلت بصوت عال لكي تسمعني إن الطبيب طمأننا كثيرا على حالتها، فسألتني دون أن تغيب ابتسامتها وهي تشير إلى صدرها:

ـ فلماذا يريدون إذن أن أجري هذه الجراحة في صدري؟ ليروا تحسن حالتي؟

كانت ممرضة قد قالت لنا قبل أن ندخل على جارتنا أن السيدة سوروندون ـ بويل لم توافق على أن يجروا لها جراحة صغيرة لتوسيع الشرايين. حاول ابنها إقناعها، فلم يفلح فليتنا نحن نقنعها.

قالت روزالين وهي تمسك بيد جارتنا بين يديها وتخاطبها بنعومة:

ـ فهمت أن هذه الجراحة الصغيرة ستساعد على التغلب على أزمة ضيق التنفس.. من مصلحتنا أن نجريها.

ظلت جارتنا تبتسم في وجه روزالين، لكنها وجهت كلامها إليّ وكأني أنا المسئول:

ـ هل أنت متأكد يا صديقي أني لن أموت وهم يجرون هذه الجراحة؟

قلت: الأطباء مطمئنون إلى أنها جراحة لا خطر منها.

ـ هذا ما تظن. هل تعرف ما هو عمري؟ أنا لا أريد أن أموت وأنا مخدرة. أريد أن أكون مفتوحة العينين وأنا أودع الدنيا. ولا أريد أن أودعها باختياري. لن أجري الجراحة لأني لا أريد أن أفرط في يوم يمكن أن أعيشه. لن أفرط في هذه الهدية باختياري. كنت أظنك أنت على الأقل معي وأنك تفهمني..

ـ أنا معك بالطبع يا سيدتي وأفهمك تماما.

ـ لا، حتى أنت لم تفهم. ما أهمية أن أعيش مائة عام على هذا السرير أو على سرير مثله في أي مكان؟ هل يساوي هذا نهارا من نزهة في حديقة وسط خضرة الأشجار وجمال الأزهار؟ هل يساوي وقفة

ساعة على شاطئ البحر؟ هذا يا صديقي هو الألف عام الحقيقي، أن نفرح بكل دقيقة في هذه الدنيا قبل أن نودعها.

استمرت روزالين في محاولاتها رغم كل شيء فقالت بهدوء:

ـ كل هذا جميل يا سيدتي، ولكن بشرط ألا نضر أنفسنا عامدين...

ـ تأكدي يا روزالين أني أحاول أن أنفع نفسي لا أن أضرها. وأنت أيضًا يمكن أن تنفعي نفسك قبل فوات الأوان، وأنت يا صديقي لا تضيع وقتك!

قلت وقد تهدج صوتي برغمي:

ـ صدقيني أنا أحاول. أنا أتعلم منك.

لم أكن واثقا أنها تسمعني لكني كررت بصوت أعلى وأنا أحدق في وجه روزالين كأني أرد على نظرتها العاتبة:

ـ أحاول. ربما لم أتعلم كل شيء بعد، لكني أحاول.

اتسعت البسمة في وجه الجارة المتعب، غير أنها أغمضت عينيها وبدا أنها تريد أن تغفو.

نهضت روزالين لكي ننصرف، ومددت أنا يدي أربت على يد جارتي قبل أن ننصرف مع وعد بزيارة قريبة.

وعندما خرجنا لم تكن روزالين هي التي تبكي، وإنما كنت أنا الذي أغالب دموعي.

وقلت بصوت مرتعش: من يستحق الحياة أكثر منها؟!

عندما خرجنا من المستشفى كنا نسير في الطريق صامتين عندما توقفت روزالين فجأة وراحت تتطلع في وجهي بنظرة غريبة وهي تقول:

ـ أنت تحب هذه السيدة يا زوجي العزيز. لا تنكر!

ـ بالطبع أحبها. ماذا جرى لك؟

ـ لا أعرف. لا أعرف ماذا جرى. هل أنا التي جننت أم أنت المجنون؟

أنت يا عزيزي تحب جارتنا. لا تحبها كسيدة عجوز ولكنك تحبها فحسب!

ـ لا تذهبي بفكرك بعيدًا يا روزالين.

ـ لكن أنت لا ترى وجهك الآن!

حاولت أن تضحك وهي تقول: أنا لا أغار منها ولا أغار عليك ولكني لا أصدق نفسي! هل هذا معقول؟ ما الذي سيحدث لك لو رحلت هذه العجوز المريضة؟

قلت بصوت مختنق: لو.. لو رحلت يا روزالين...

ثم تركت لدموعي العنان.

لم نعد لهذا الحديث بعدها، حلَّ بيننا صمت، ولم نزر جارتنا في اليوم التالي ولا بعده.

لكني فوجئت وأنا أخرج من البيت بعد بضعة أيام بجارتي تحاول أن تفتح باب شقتها وبجانبها على الأرض حقيبة صغيرة.

اندفعت نحوها وصافحتها بفرح وأنا أهز يدها وسمعتها تقول إنها خرجت هذه المرة أيضًا بإرادتها بعد أن وقعت على الورقة التي تخلي مسئولية المستشفى.

استرد وجهها شيئا من حيويته القديمة وهي تتنهد بارتياح وتمسك الباب المفتوح متأهبة للدخول.

أدارت رأسها نحوي وهي ترفع حقيبتها الصغيرة من الأرض وقالت بابتسامة خجولة مذنبة:

ـ اعترف أنك أنت أيضًا تظن أن هذه العجوز الغبية قد أخطأت!

أليس من الأفضل لها أن تبقى في المستشفى أو تذهب إلى بيت المسنين إلى أن يحين يومها فتختفي بسلام؟ تختفي دون أن تزعج ابنها أو جيرانها؟

ابتسمت لها بدوري وقلت بحرارة: بل ابقي معنا أرجوك. ابقي معنا دائما، فأنا أيضًا أريد أن أعيش ألف عام.

صدر للمؤلف

١- الخطوبة	مجموعة قصصية	١٩٧٢
٢- بالأمس حلمت بك	مجموعة قصصية	١٩٨٤
٣- أنا الملك جئت	مجموعة قصصية	١٩٨٦
٤- ذهبت إلى شلال	مجموعة قصصية	١٩٩٨
٥- شرق النخيل	روايـــة	١٩٨٥
٦- قالت ضحى	روايـــة	١٩٨٥
٧- خالتي صفية والدير	روايـــة	١٩٩١
٨- الحب في المنفى	روايـــة	١٩٩٥
٩- نقطة النور	روايـــة	٢٠٠١
١٠- واحة الغروب	روايـــة	٢٠٠٦
١١- ١٠ مسرحيات مصرية	نقـــد	١٩٨٥
١٢- في مديح الرواية	نقـــد	٢٠٠٤
١٣- أبناء رفاعة: الثقافة والحرية	فكـر	١٩٩٠
١٤- فاصل غريب	ترجمة	١٩٧٠
(ترجمة لمسرحية يوجين أونيل)		
١٥- ساحر الصحراء	ترجمة	١٩٩٦
(ترجمة رواية الخيميائي لباولو كويلهو)		

بالقصص الست التي يضمّها هذا الكتاب يعود الكاتب الكبير بهاء طاهر إلى فنّ القصة بعد أحد عشر عامًا على صدور آخر مجموعاته القصصية: «ذهبت إلى شلال». ليكمل مسيرته القصصية التي بدأت عام ١٩٧٢ بصدور أولى مجموعاته: «الخطوبة»، عندما وصفه الرائد يوسف إدريس بأنه كاتب «لا يستعير أصابع غيره». ومنذ ذلك الحين وحتى الآن نجح بهاء طاهر كواحد من أهم كتاب القصة القصيرة في مصر والعالم العربي. وذلك بالإضافة إلى إنجازه الروائي الكبير.

ولد الكاتب الكبير بهاء طاهر عام ١٩٣٥. وحصل على جائزة مبارك في الآداب عام ٢٠٠٩، وحصل على جائزة الدولة التقديرية فى الآداب عام ١٩٩٨. والجائزة العالمية للرواية العربية (البوكر العربية) في أولى دوراتها عن روايته «واحة الغروب» (٢٠٠٧). وصدرت له حتى الآن ست روايات، من أهمها: «خالتى صفية والدير» (١٩٩١)، و«الحب فى المنفى» (١٩٩٥) وخمس مجموعات قصصية، بالإضافة إلى الدراسات الأدبية والنقدية والترجمات.

الغلاف وليد طاهر


6 221102 025157

دار الشروق
www.shorouk.com



www.ibtesama.com